مع المخطوطات العربية


مكتبة الروضة الحيدرية


Ex Libris
И. Ю. КРАЧКОВСКАГО.

كراتشكوفسكي

مع المخطوطات العربية

صفحات الذكريات عن الكتب والناس



وهذه الفكرة جعلتني أخرج الكتاب فى طبعته الثالثة بدون اضافات او تغييرات جوهرية، اللهم الا بعض التعديلات البسيطة المتعلقة اساسا بالاسلوب. واضفت في فصل الملاحظات قائمة اهم التقاريظ لكتابي وقائمة ترجماته المعروفة مني. ومع ان المواد التى في يدي غير كاملة بالطبع الا أن هذه القائمة تبين بوضوح كاف — كما يبدو لي — أن الكتاب وجد صدى فى اوساط جد واسعة سواء عندنا أم في الخارج.

واني لأرى، حين اتوجه الى ذاكرتي مرة أخرى بعد مضي عامين على الطبعة الثانية، أن الكتاب قد استنفذ أوضح الامثلة عن تلك الادوار التي لعبتها المخطوطات في حياتي. ولذلك لم تتحقق في هذه المرة ايضا رغبة من رغبات العديد من المراسلين.

وكثيرا ما وجهت اليّ اسئلة وعتاب عن السبب في أنني لم أتذكر (في هذا الكتاب) ذلك العالم او غيره الذي أعرفه والذي تحدثت عنه في أماكن أخرى، ولماذا لم أكتب أي شيء عن بعض الوقائع في تاريخ حياتي العلمية! وكانت اجابتي من قبل والآن اجابة واحدة هي أن الكتاب لا يستنفد الى حد بعيد كل ذكرياتي سواء أكانت عن الناس ام عن أعمالي؛ وانني لم أتعرض فيه الا لاولئك الذين قادتني اليهم المخطوطات أو الذين كانوا متصلين بها عن قرب. ومن غير الممكن اطلاقا اعتبار الكتاب انعكاسا لكل حياتي وكل

ذكرياتي. ولذلك فانني عدلت في هذه الطبعة الجديدة عن الرغبة في اضافة فصول عن اناس آخرين ووقائع أخرى في طريق حياتي، حتى لا أخل بالمحور الرئيسي وبالشكل المحدد للكتاب.

ولقد كان امثال هؤلاء الناس وهذه الوقائع كثيرين وان كثيرا من الاشياء التي لا توجد عنها فى هذا الكتاب أية كلمة لعزيزة عليّ قدر ما هي عزيزة هذه الاشياء التي تحدثت عنها فيه. ولقد شعرت طيلة السنوات الأخيرة كيف أن وجوه الراحلين من «المعلمين والتلاميذ» ترتسم أمام ناظري بوضوح واصرار وتبتغي بسلطان متضاعف تجسيمها في كلمات وهي تسيطر على اوادتي كما سيطرت عليها المخطوطات في الفترة القريبة. وقد لقي وضع كتاب عن المخطوطات الاعتراف به وأظهر أن في وسع الحديث عن الامزجة والانفعالات الشخصية دخول تيار الثقافة العريض. ولقد بدا لي أنه لا بد من الاستجابة لاصوات أخرى تعلن بقوة عن حقها في ذاكرتي.

ولعل كتاب الذكريات القادم سيكون — اذا سمحت قوتي — اهداء الى «المعلمين والتلاميذ».

لينينغراد

نيسان (ابريل) ١٩٤٨.

مقدمة الطبعة الثانية

لقد واتى الحظ هذا الكتاب: فقد كتبته في سنوات الحرب القاسية، الا انه صدر في الايام المشهودة من ايار (مايو) ١٩٤٥، حين استقبلت البلاد كلها باحتفال، النهاية المظفرة لمأثرة اعوام الحرب. وكان الشعور قويا جدا بالرغبة في الجهد السلمي وفي العمل الذي انقطع في مجال البناء الجليل لثقافتنا. وقد رحب بهذا الكتاب ترحيبا وديا حتى من كان في حياته بعيدا عن المخطوطات العربية، ومن لم يفكر مطلقا من قبل في علم اللغات والآداب الشرقية. وأظهرت الرسائل والتقريظات طيلة نصف عام أن الطبعة الثانية ضرورية وأن الكتاب قد وجد لنفسه مكانا في ثقافتنا المتسعة. وكان اعداد الطبعة الثانية لا في المكان الذي نزحت اليه (زمن الحرب) بل في مكتبتي بين الاصدقاء القدامى، أعني المخطوطات والكتب التي تحملت ويلات حصار لينينغراد. وعندها استطعت أن أتحقق من صحة التواريخ وأن أصحح ما ليس مضبوطا في الاقتباسات اذا كانت قد خانتني الذاكرة، وأن أوضح بعض التفصيلات الجزئية.

ولقد أضفت الى الكتاب فصلين هما الثالث والسابع اللذين كتبتهما في ظروف أخرى بالنسبة للطبعة الأولى. واني أشعر بأن أسلوبهما لا يشبه احيانا أسلوب الفصول السابقة. فقد يكون في أحدهما كثير جدا من الاقتباسات والوثائق التى أمكنني بلسانها التحدث عن نفسي بطريقة أسهل من كلماتي الخاصة. ولقد أردت أن يرن في كتاب عن المخطوطات العربية صوت أصدقائنا الكثيرين في البلاد العربية سواء فى الماضي ام في الحاضر.

وما خشيت من عدم محافظتي على الترتيب الزمني في الفصول التي ألفت في اوقات مختلفة ومن عدم توفر الوحدة الكاملة في طريقة العرض او وجود التكرار احيانا. فالحياة بين المخطوطات لها ايضا اشكالها المتنوعة الوجوه كالحياة بين الناس. ولهذا فمن غير اللازم اعطاء ترتيب دقيق او شكل منظم خارجيا للذكريات عن هذه الحياة بين المخطوطات. وقد كتب كل فصل على حدة. وكل فصل يحمل طابعا مستقلا بذاته. واذا كان احد هذه الفصول يضيف شيئا ما الى الفصل الآخر ويتداخل معه مرارا في التفصيلات فلا يلومنني على هذا من سيقرأ الكتاب مجزءا.

واني لجد شاكر لكل من استجاب بكلمات خيرة وبتمنيات طيبة على الافكار العزيزة علّي في هذا الكتاب. فقد ظهر الفصلان الجديدان الى حد ما كاستجابة لبعض الرغبات، وما انا بملوم على أنني قد حافظت على المحور

الرئيسي للكتاب: ففي كل مكان في الكتاب انطلقت من الذكريات عن المخطوطات والكتب، وفي كل مكان لم أتحدث الا عن اولئك الناس الذين قادتني اليهم على طريق حياتي المخطوطات والكتب، قديمها وجديدها، عربيها وروسيها.

لينينغراد

كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٥.

افتتاحية

ارجو أن لا ينظر الى هذا الكتاب على أنه مذكرات شخصية للمؤلف. فما كتبت هذه المذكرات عن نفسي، بل عن المخطوطات العربية التي لعبت دورا كبيرا في حياتي، والتي شاء لي الحظ ان اقع عليها، او التي شقت طريقها الى دنيا العلم عبر يديّ.

كثيرا ما استدعت تلك المخطوطات من ذكريات عن المكتبات المختلفة التي اختزنتها، وذكريات عن اولئك الناس الذين كان لها صلة بهم، وبالطبع كثيرا ما استدعت من ذكريات عن نفسي. ولكن ما كان هذا كله بالامر الرئيسي. فلقد أردت قبل كل شيء أن أظهر ما يشعر به العالم في دراسته للمخطوطات، وأن اكشف قليلا عن تلك المشاعر التي تثيره، والتي لا يتحدث عنها مطلقا في ابحاثه الخاصة، بل يقتصر على بسط النتائج العلمية التي استخلصها. لقد أردت أن أتحدث عن عملي المكتبي بافراحه واتراحه التي لا يعرفها الكثيرون البتة اذ يعدون هذا العمل مملا وجافا ومنقطعا عن الحياة.

وقد يرى الناس فى حديثي فيضا من العاطفة والرومانطيقية، الا اني لا اخاف هذا اللوم: فهكذا عشت عملي وهكذا اتذكره.

لم اتعمد في هذا الكتاب السعى الى تبسيط العلم؛ فليس يهمني أن لا يتذكر القارئ جميع ما ورد فيه من الوقائع المنفردة، أو أسماء الاعلام. ولكنني اقتصرت في تحديد مادة الكتاب على المواد القريبة من محيط عالمي الذي أعيش فيه، واني الآن لاكتب للمرة الاولى عن اشياء كثيرة واكتب عن اشياء متعددة اخرى بطريقة تختلف عن ذي قبل، ولهذا فقد يجد القارئ من حين لآخر في هذا الكتاب أشياء جديدة ومفيدة للعلم. على أن هذا ليس ما يهمني من الامر. وانما الذي يهمني هو شيء آخر. انني لا أخفي أنني أردت أن أقوم بشيء من الدعاية لميدان عملي، وأن أتحدث بملء صوتي عن علم اللغات والآداب الشرقية. لقد أردت أن ابين قدر طاقتي كيف ان ثمة اناسا يعملون في هذا الميدان لا لمجرد أن لديهم ذوقا ذاتيا، غريبا على حد ظن بعضهم، يجتذبهم الى هذا العمل، وأن هؤلاء الناس يطوفون بهذا الميدان لا بدافع الولع بالغرائب وانهم ليسوا بزهّاد ينعزلون عن الحياة. ان ذكريات مشاعري نحو المخطوطات تحتم عليّ أن أتكلم عن كل نقطة تفصيلية فيها لأنها تتكامل فيما بينها وترتبط بمسائل ضخمة تتعلق

بتاريخ الثقافة وجميعها تصب، آخر المطاف، في تيار قوي نحو مثل الانسانية الرفيعة.

هذا هو ما كان يستحوذ على فكري دائما وانني أود أن تجد هذه الافكار الطريق الى عقول وقلوب من سيقرؤون هذا الكتاب.

أول آب (أغسطس) ١٩٤٣

مصحة «اوزكويه»

١. في قسم المخطوطات

(اهداء الى ايفان آفاناسييفيتش بيتشكوف)

تمهيد

(١٩٠١)

في بداية هذا القرن، سنة ١٩٠١، عبرت بارتعاش واجلال عتبة المكتبة العامة في بطرسبورغ للمرة الاولى، وكنت آنذاك طالبا في الصف الاول ما زالت تستحوذ عليه الانطباعات الحية التي تركتها في نفسه القصة التحررية القديمة لموردوفتسيف «معالم العصر»، حيث قد تضمنت اشارات كثيرة الى تلك المكتبة العامة ومديرها بيتشكوف. ولو أننا جمعنا كل ما كتب عن مكتبتنا في مؤلفات ادبية فقط لأصبح لدينا كتاب ممتع مفيد يصور بوضوح قصة حياتنا الاجتماعية، قصة كفاحنا من أجل حرية الفكر في صور مملوءة احيانا بروح حماسية عالية واحيانا أخرى بتراجيديا عميقة.

والآن وبعد اربعين سنة من زيارتي الاولى لتلك المكتبة العامة، اذا ما ادخل الى القاعات المهيبة بقسم المخطوطات وأرى خازنها العجيب واسمه لا يزال بيتشكوف ذلك الاسم الذي كان يعرفه جيدا جيل آبائنا واجدادنا، لأحس في صدري حماسة رائعة ولاستشعر عظم الاعمال التي تحقق فيها باكمله.

واما نحن المستشرقين، فان قسم المخطوطات كان لنا دائما وما زال مدرسة شاذّة. وندخله ونحن طلبة شبان خجلون وفيه انشئت ابحاثنا (او مقالاتنا) الاولى. وما زلنا نزوره مشيبين بعد مرور عشرات الاعوام، للدراسة مع تلامذتنا ونوجه اليه تلاميذ تلامذتنا.

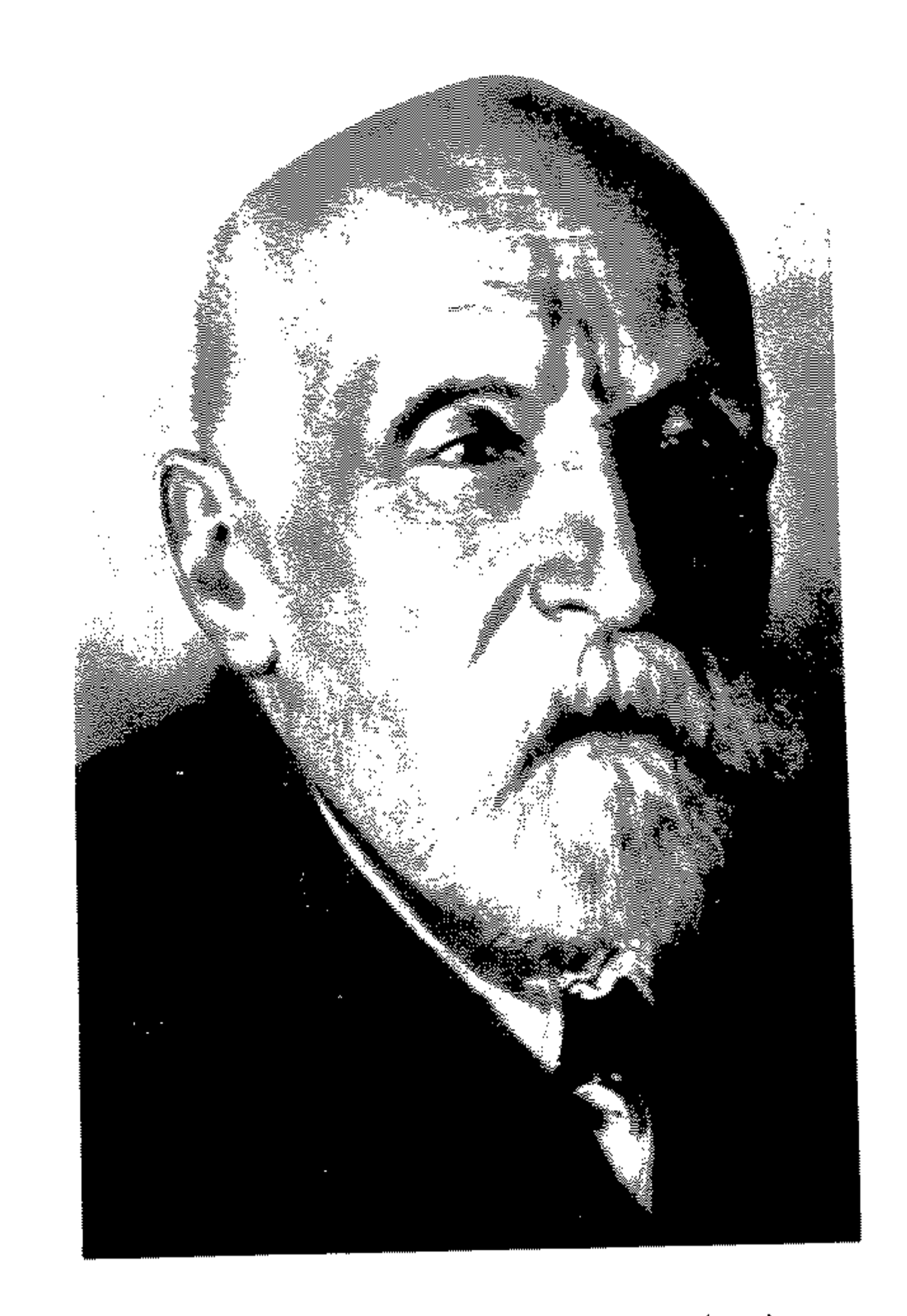
وبين هذه الجدران المرتفعة الصارمة نوعا ما، ولدت مؤلفات ورسائل لا يمكن أن تحصى أو تعد وتحقق كثير من الاكتشافات العلمية البارزة حين دقق بعضهم النظر في احدى تلك المخطوطات المبعثرة ثم ترامى الى الوراء على كرسيه ليتأمل ما عرض له من الافكار، فيحس بفكرة جديدة غير متوقعة. وانه اذ ذاك ليشعر بانفعال يغمره ببهجة العالم العظيمة. ذلك ان عملية الابداع العلمي عزيزة وحبيبة الى نفس كل عالم سواء في ذلك من يقف في المختبر، او من يدقق النظر في المخطوطات الملقاة على تلك المنضدة.

كان كل شيء هناك يحفز الى العمل ويجعل الانسان في الحال منغمسا في جوه. فكان يصعب علينا احيانا أن نصدق ان ثمة خارج جدران المكتبة حياة تضطرم في الشارع بجلبتها وضوضائها. فهنا في المكتبة صمت وهدوء كما في أي مختبر جيد. واذا كان «نيستور المؤرخ»* ف

* يقصد هنا تمثال مؤرخ وكاتب روسي قديم (عاش فى القرن الحادي عشر – بداية القرن الثاني عشر) من نحت انتوكولسكي. وهذا التمثال موجود فى قاعة القراءة بقسم المخطوطات للمكتبة العامة بلينينغراد. (هذه الملاحظة والملاحظات التالية من الناشر.)

تمثاله الابيض دائم العكوف على منضدته يكتب ويسطر دون تعب فان لهذا التمثال مكانا مناسبا هنا في هذه المكتبة.
وهنا في هذه المكتبة يسير بهدوء ذلك القيّم المخلص على تلك الكنوز من المخطوطات، وانك لتجده مستعدا دائما لتقديم المعونة والنصح والارشاد لكل من يطلبه. وهنا تسمع في هدوء حفيف أوراق الكتب والمخطوطات على المناضد. وهنا أيضا، رويدا رويدا وخطوة خطوة، وسطرا سطرا، يخلق العمل العلمي الذي تخرج نتائجه من بين هذه الجدران العالية الى تلك الشوارع المضطربة خارج جدران هذه المكتبة لتنشرها صفحات الجرائد والمجلات في كل البقاع، ولتستقر هذه النتائج أيضا في بطون الكتب على رفوف هذه المكتبة العامة.

ولقد مرت اعوام واعوام وتوالت أجيال العلماء، ولكن العمل هنا يسير بلا انقطاع. وكما هي العادة دائما تجد القيّم الطريف على قسم المخطوطات يسير بهدوء كأنما هو ملاك طيب؛ ذلك القيّم الذي دخل عالم التاريخ والاساطير وهو ما يزال حيا. فان ما قدمه ايفان بيتشكوف من خدمات لبلاده وللعلم والعلماء كافة ليرتفع فجأة بوضوح في احتفال من احتفالاتنا اليوبيلية، تلك الاحتفالات التي تضيء كل الطريق الذي قطعناه كأنما هي نوّارة كبيرة، الا أن هذه النوارة تلقي اشعتها على صفحات حياتنا ايضا وعلى أوراق تلك المخطوطات التي تركت في حياتنا اثرا لا يمحى...



ا. ا. بيتشكوف (١٨٥٨ــ١٩٤٤).

الاكاديمي ف. ر. روزن (١٨٤٩ــ١٩٠٨).



ا. يو. كراتشكوفسكي. شباط (فبراير) ١٩٠٦.

١ ـ كتاب قديم

(١٩٠٦)

كنت أجلس في قسم المخطوطات وأنا بعد طالب ماجيستر حديث العهد تماما انتهيت حديثا من دراستي بالجامعة، وكان أمامي على المنضدة خمس ورقات من الرقّ هي كل ما بقي من مخطوط كان كبيرا فيما مضى من الزمن. غير ان الورقات لا تقدر بثمن على حالها الحاضرة ايضا. «انها من مجموعة تيشيندورف!» ـ هكذا كان يهمس القيّم ايفان آفاناسييفيتش بيتشكوف همسا يدل على اهتمام كبير بعد احضار هذه المخطوطات من خزائنها الخفية في ذلك القسم. وبشعور خاص رحت انظر الى هذه الورقات فوجدت في نهايتها عبارة: «وكتب سنة اثنين وسبعين ومايتين بالتقويم العربي». فقلت في نفسي: «المخطوط اكبر من عمري بألف عام». وقرأت بانتباه عظيم في ذلك الكتاب حيث يتحاور الشيطان مع الموت وادركت لماذا لم تدرجه الكنيسة في قانونها (عدد الكتب المقدسة) ففي هذه المخطوطة تنعكس بوضوح قوي المشاعر الانسانية بطريقة تخالف دستور الرهبان. ووقع بصري على توقيع كبير: «وكتب هذا المخطوط ابنا انطونه البغدادي فى دير القديس سابا واستكتبه ابنا اسحق لطور سيناء». ومن خلال قراءتي لتلك السطور التي كتبها البغدادي، رأيت

الملايو. وقد أدى ربطه بين الأصول الشرقية والغربية الى نتائج ثابتة. وابتدأت تتضح له معالم الربان العربي لفاسكو دي غاما. وقد كان معروفا منذ زمن بعيد أن ربانا من العرب كان يصاحب فاسكو دي غاما في رحلته الاولى من ملندي الى كلكتا في ١٤٩٨. لكن الاصول البرتغالية تردد أسماء غير واضحة لهذا الربان مثل «ماليمو كاناكا» او «عربي من التزرات». وعندما ربط فرّان بين هذه المعلومات البرتغالية وبين المعلومات العربية والتركية استطاع آنذاك أن يحدد الاسم العربي الحقيقي لهذا الربان وأن يوضح مسقط رأسه. والى جانب هذا أمكن اكتشاف مؤلفات شخصية لهذا الربان نفسه في المكتبة الوطنية في باريس في تلك الفترة التي انقطعت فيها الصلة بين علمائنا وبين العلم في الخارج. ولم يكن هذا الربان البحري على معرفة بالناحية العملية فقط بل وبالناحية النظرية أيضا. وعلت وجهي ابتسامة ساخرة نوعا عندما قرأت أن مؤلفات الربان البحري هذه ظلت ملقاة في المكتبة الوطنية، غير معروفة حتى عام ١٩١٢ مع أن أحدى مخطوطاته كانت موجودة هناك منذ العقد السادس للقرن التاسع عشر.

وفي هذه اللحظة بالذات شعرت بحمرة الخجل تصعد الى وجهي. آه، أحمد بن ماجد! ان هذا الاسم هو اسم مؤلف الأراجيز الثلاث التي توجد في تلك المجموعة التي

تناولتها يدي مرارا بنظرة تضجر وسأم! وبشعور تلميذ مذنب او ربما بشعور جرو مضروب تناولت في يدي من جديد مخطوط الأراجيز الثلاث الذي قد سخر مني شامتا من تعاليّ عليه واهمالي اياه. ولم يكن هناك أي احتمال للشك. فالأراجيز من ناحية الشكل والمضمون مشابهة تماما لتلك الأراجيز التي اكتشفها زميل فرّان في باريس. وبالطبع فان هذه الأراجيز التي كانت في يدي آنذاك ليست بخط هذا الربان المشهور نفسه ولكن، حسب كل احتمال، فان هذه النسخة يمكن أن تكون قد كتبت في وقت قريب من موت هذا الملاح. والأراجيز الثلاثة جميعها عبارة عن وصف لطرق بحرية مع اشارة الى مراحلها المختلفة وبعض المعلومات العامة عن الطرق. والأراجيز الثلاثة تتعلق أولاها بالابحار عن طريق البحر الأحمر والثانية بالابحار عن طريق المحيط الهندي والثالثة وصف الطريق من هنا الى افريقيا الشرقية. وهذه الأراجيز لم تكن موجودة في مخطوطات المكتبة الوطنية. وقد أسرعت بالكتابة الى فرّان طالبا منه أن يخبرني عما اذا كان يعرف أي مصدر آخر يتضمن هذه الأراجيز الثلاث للطرق البحرية. وكان جوابه بالنفي، ورأيه في هذه الأراجيز أنها فريدة. على أن دراسة وتحليل هذه الأراجيز دون اعداد سابق لها هي عملية ليست سهلة او بسيطة. ورغم كل ما كان لدي من رغبة فقد صرفتني عنها في

ذلك الوقت واجبات أخرى فلم أستطع القيام بهذا العمل، اللهم الا في كلمة لي بالجمعية الجغرافية عرضت فيها على الشاشة صورة من الصفحة الأولى لاحدى هذه الأراجيز، وقد استمتع بحارتنا بمشاهدة هذه الصورة وحازت اعجابهم. ثم ان فرّان أخذ على عاتقه تنفيذ اقتراحي بالعمل على تحقيق هذا المخطوط واعداده للنشر. ولم أدر ما اذا كان قد استطاع أن يبدأ العمل فيه فعلا أو لا. ذلك انه بعد ذلك بفترة قصيرة وصلني عام ١٩٢٨، خبر قصير مطبوع ـ بحسب تلك العادة الغربية الحسنة ـ يفيدني بوفاته. وكان لا يوجد في فرنسا من يواصل هذا العمل من بعده. ومن جديد بقي هامدا على الرف مخطوطنا عن الطرق البحرية الثلاثة لربان فاسكو دي غاما.

الا أنه بعد عدة أعوام ظهر لي تلميذ موهوب أظهر تحمّسا ذاتيا نحو الجغرافيا والخرائط العربية. وتعرف بسرور كبير على هذه الأراجيز البحرية وقدر اهميتها حق قدرها. وكنت أشاهد بعين الرضا كيف أنه تغلب باصرار على صعوبات المصطلحات وكيف أنه باصرار أيضا أوجد تحديدا للمسميات الجغرافية. وأنبأ حماسه الذي لم يعرف الوهن عن نتائج حسنة وكنت أراه ينمو أمام عيني. لكن القدر لم يمهله، وحطّم عمله العلمي في أول بدايته.

وهكذا ظلت هذه المجموعة الرائعة تنتظر دراستها وتحقيقها. ولكن الشيخوخة اصابت يدي بالوهن شيئا

فشيئا، فلم تعد تستطيع بالتالي تناول اي شيء او الدنو منه. ولا يسعني الا أن أردد عبارة ذلك الموسيقي حين قال: «كان في راسي أيام الشباب ألحان كثيرة لكنني لم أملك أن أسطرها والآن أستطيع بسهولة أن أسطر لكن لا أعرف أي لحن أختار». ومع ذلك كان يتملكني أحيانا حتى في الليالي الساهدة حلم وأمل: «الا ليت خمسة من المستعربين مختلفي الاختصاصات والاتجاهات يجتمعون من أجل وصف المخطوطات! عندئذ لأمكن أن تقسم مجموعات مخطوطاتنا بحسب نظامها الموضوعي ولأمكن، في مدة لا تتجاوز عمر الانسان، وضع فهرس كامل يحمل الى المجال العلمي مادة هائلة ومهمة. وعندئذ لما قُدِّر لمخطوط أراجيز ربان فاسكو دي غاما أن ينتظر مائة عام أخرى حتى يثير اهتمام شخص ما فيعمل على نشره». لكن ويحك! ان المثل العربي الشعبي يقول: «كلمة ياريت ما تعمر بيت».

على أنه في عام ١٩٤٨ أسعدني القدر بعض الاسعاد. ففي كلية الاستشراق بجامعتنا نوقشت رسالة لدرجة المرشح في العلوم كانت قد بدأت بجد في بحث ودراسة أراجيزنا واعدادها للنشر*.

---

* نشرت في سنة ١٩٥٧ في موسكو بتحقيق فيودور شوموفسكي، ذلك ال«تلميذ الموهوب» لكراتشكوفسكي.

٥. في المكتبة الجامعية

١ ـ المكتبة وأمناؤها

(١٩٠١ـ١٩٣٠)

من وراء الحائط... عبر نافذة صغيرة... من حجرة المستخدمين، وصل الى مسمعي صوتان. وفي هدوء الليل بالمكتبة تمكنت من تمييزهما جيدا. أما الصوت الاول فهو للاستوني او اللاتفي ايفان الذي لقبته منذ زمن بعيد بالمتفائل. وأما الصوت الثاني فهو صوت جهوري أجش لشخصية جديرة في المكتبة بالقدر نفسه هي شخصية بيوتر. كان الوقت يقترب من التاسعة، موعد اغلاق المكتبة، وعندها ينتهي عملهما الليلي. وقد كانا ـ وهما الصديقان القديمان المتجادلان دائما ـ يتحادثان في هدوء وسلام كما هي العادة عن الموضوعات المكتبية التي لا حياة لهما خارجها منذ اكثر من عشرين عاما.

وكان الحديث العرضي يعكس بوضوح طبع كل منهما: وبصرف النظر عن صداقتهما فان أحدهما لا يشبه الآخر في شيء. فايفان «المتفائل» قصير القامة، سريع الحركة، ذو شعر مائل الى الصفرة، هاش باش دائما،

كثير الكلام وخاصة عندما يكون تحت تأثير خفيف من الكحول، الامر الذي كان يحدث معه مرارا. أنه كان يعتبر عمل كل واحد من العلماء الوافدين الى المكتبة كبارا وصغارا عمله هو، وتراه بدون تعب يحمل الكتب اللازمة لهم من أعلى ومن أسفل وكان يفعل ذلك دون اللجوء الى مساعدة امناء المكتبة او الى فهارس المكتبة. فهو يعرف الحروف اللاتينية جيدا ويعرف اللغة الالمانية الى حد ما، وقد مكنه ذلك من الاعتماد على ذاكرته في معرفة أماكن مختلف «محاضر الجلسات» بما في ذلك المحاضر الخاصة بمجمع فيينا العلمي ومجامع علمية أخرى. وهو لم يكن يعترف بالدرجات او الرتب وكان يقدر الناس على حسب علاقتهم بالكتب وعدد مرات زيارتهم للمكتبة. فذات مرة عندما كان في الطبقة السفلى للمكتبة دخل الاستاذ ف. ف. مارتينس النجم اللامع في القانون الدولي الذي كان مرارا رئيسا لمحكمة العدل الدولية بلاهاي، فوجهه ايفان الى مدير المكتبة قائلا له وهو في طريقه: «هنا في الطبقة السفلى، لا يوجد أي عمل لكم. فهنا يشتغل العلماء».
والى جانب هذا، كان ايفان يستلطف بعض الاشخاص سواء كانوا من بين مساعدي الاساتذة الشباب او من بين الذين أنهوا الجامعة وابقوا للعمل فيها. وعندما كان المستلطفون يظهرون في القاعات الداخلية للمكتبة، يقوم ايفان بمساعدتهم بصورة لا تقل عن مساعدة أي أمين

من أمناء المكتبة، ويقدم لهم دون تقتير شايا بالسكر من الشاي «المخصص رسميا» لموظفي المكتبة. على أنه يجدر القول بأنه نادرا ما كانت تخطئ عيناه، فقد لاحظ موهوبين كثيرين في عصره قبل أن يعترف بهم العلم الرسمي.

أما بيوتر «المتشائم»، فهو لا يشبه زميله. انه طويل القامة، نحيف، يخالط شعره المشيب وما زال يحتفظ ببعض عاداته العسكرية، فهو صارم دائما، لا يكثر من الكلام، ومع ذلك فهو الآخر يعرف المكتبة جيدا من قديم، وهو مهذب وخدوم. الا أن المرء كان يخجل من أن يتوجه اليه بطلب مفضلا أن ينتظر حتى ينزل ايفان من الطبقة العليا. وايفان عزب أما بيوتر فأرمل، وكما يقال أنه ابتدأ يشرب الخمر منذ وقت ترمله، لكن لم يكن أحد يراه سكران في المكتبة: فهو لا يشرب الا عشية الأعياد، وفي منزله فقط. ولم يكن لديه الا ولد راشد كان يعمل هناك في المكتبة كمعاون وكان يقوم بتسليم الكتب للطلبة في قاعة المطالعة. وكان أبوه يعامله بنفس الخشونة والجفاف. ويبدو أن بيوتر لم يكن يكثر من الحديث الا مع ايفان.

ووصلت آنذاك الى مسمعي ملاحظة قصيرة بصوته الأجش في الرد على عبارة ايفان المتقطعة بصوتها الهادئ وخطؤها التلفظي غير قليل. فلم أميز كل شيء فيها ولم

اصغ اليها. وكنت جالسا طول اليوم في المكتبة من أجل الاقتباسات اللانهائية اللازمة لرسالتي المقبلة ولم اترك العمل الا ساعة واحدة ذهبت فيها للغذاء. وتعبت عيناي. وعن قريب ستقفل المكتبة أبوابها. ونسيت أمر الاقتباسات. وتحت «الأباجورة» الخضراء، وسط رفوف الكتب، أخذ فكري يدور حول رسالتي او ربما حول سفري القريب الى الشرق، وانما ذلك الحديث، الآتي من وراء الجدار، يصحب افكاري. وسمعت فجأة ذكر اسمي يتردد. وبدأت استمع الحوار، من وراء الجدار. قال ايفان «المتفائل»:

— ها هو كراتشكوفسكي صار يأتي في المساء... واليوم يجلس من جديد.

— رأيته... — قالها بيوتر غير راض — طول النهار لا يكفيه!..

— لا بد أنه متعجل — استرسل ايفان كأنه لم يسمع — عن قريب سيذهب الى الشرق، الى العرب في مهمة رسمية. فليدرس هناك أيضا ويتعلم.

— أما أنه يأتي الى المكتبة فهو يأتي، لكن أية فائدة من هذا؟ — قالها بيوتر غير راض وبصوت أجش وكما لو كان يريد التحرش بزميله.

— لماذا لن تكون فائدة؟ — قالها ايفان وما زال هادئا — يأتي الى هنا في المكتبة ثم يكتب رسالته ثم يناقشها ويحصل على درجة الماجيستر. ان المستشرقين مثل

الكلاسيكيين (المتخصصين في الأدب اليوناني واللاتيني القديم).
هم أناس حقيقيون، وليسوا كعلماء القانون. عالم القانون يأتي الى المكتبة مرة واحدة في الشهر وبعدها يكون قد ألف كتابا. هل هذا عمل؟ لكن ها هو العالم اللغوي او المستشرق يجلس كل يوم لمدة سنتين. هذا هو العمل الحقيقي.

– اما أنه يأتي الى المكتبة فهو يأتي – قالها بيوتر وهو لا يريد أن ينسحب – لكن أية نتيجة سيحصل عليها؟ لقد أتى رودنيف أيضا الى المكتبة. وماذا كانت الفائدة؟ رسالة؟ لا توجد رسالة... وشعره تساقط من على رأسه. انظر، هذا ما قد يحدث مع كراتشكوفسكي.»

ولقد سرني هذا الكلام لتوه. وبصورة عفوية أخذت أفكر لا في الرسالة وانما في شعري الذي قد يحدث له فجأة أن يأخذ في التساقط. وهذه الحالة حدثت فعلا منذ وقت قريب لزميلي الأقدم المستشرق في الدراسات المونغولية رودنيف. وكان ذلك بسبب اصابته بمرض عصبي مجهول. ولكن هذا بالطبع لم يعقه وبالرغم من نبوءة ذلك «المتشائم» فقد أصبح مع الوقت عالما كبيرا مشهورا. على أنني لم أسمع اجابة «المتفائل». ومرت دقيقة سادها، على ما يبدو، الارتباك والصمت وبعدها سمع صوت مغتاظ «تفوّ!» وخرج ايفان من الحجرة خابطا الباب خلفه بشدة. ومن جديد افترق الصديقان في الآراء.

ولم تكن نهايتهما واحدة. وفي فترة الحرب العالمية الأولى ذهبت الى المكتبة صباح يوم من ايام الاثنين فوجدت ايفان وقد انتفخ وجهه من الدموع. «بيوتر... آه... بيوتر...» ــ هكذا لم يستطع أن ينطق سوى هذه الكلمات. فسألته في قلق: «ما الأمر؟» ــ «مات يوم السبت، فقد ذهب الى البيت بعد العمل ووضع على المنضدة زجاجة صغيرة وشرب كأسا صغيرا ثم صب الثاني وبعدها مات وهو على المنضدة. ووجده ابنه هناك والكأس الصغير ما زال ملآن. يا لها من ميتة سعيدة!» ــ هكذا أنهى كلامه على غير انتظار وأخذت دموعه تنهمر من جديد. ومنذ هذه اللحظة بعد أن فقد ايفان صديقه الملازم له والمتجادل معه، صار يشعر بالوحشة اكثر فأكثر، واندفع بقوة الى تعاطي الكحول. وفي عام ١٩١٧ بعد ثورة شباط (فبراير) رجع الى وطنه وعمل هناك في مكتبة كبيرة، على حد ما سمعت.

ولم أتمكن من أن أحصل بسرعة على مكاني هذا الذي سمعت منه ذلك الحديث البالغ الدلالة. فقد كان المكان على الطبقة الأولى بين الرفوف حيث تقوم منضدة كبيرة كانت تحت أمري تماما. وبالقرب منه كان يوجد القسم «O» (Orientalia) («قسم الاستشراق») القريب من قلوب المستشرقين. وكان السهل أن يحمل منه ما كان يهمني آنذاك من المطبوعات الشرقية. وفي طرف آخر من هذا

المكان كانت تقوم رفوف خشبية صفراء تحتوي على المخطوطات التي لم أقدر جوهر محتوياتها الا مع مرور الزمن. وكان العمل هناك مريحا. وكان يوجد في هذا الطابق كله منضدتان كبيرتان او ثلاث من أجل العاملين. وكان الهدوء يكاد يكون تاما، ولم يكن يقطعه الا تلك الأصوات الخفيفة الصادرة عن خطوات المستخدمين في المكتبة الذين كانوا يأخذون الكتب او يعيدونها على الرفوف. والنافذة تطل على حديقة الجامعة التي ترتدي في الشتاء لباسا ثلجيا ناصع البياض متراكما فوق الاغصان. وفي الصيف والخريف تكسوها خضرة كثيفة ترتاح العين لمنظرها. وعلى المنضدة في المساء كان يضيء مصباح تحت «أباجورة» خضراء. وعندما كنت أمر أحيانا في «شارع الجامعة» في يوم لم أتمكن فيه من الذهاب الى المكتبة، كان في وسعي ان احدد،من خلال أشجار الحديقة، مكان منضدتي بضوئها الأخضر الذي ينعكس منها. وكانت هذه المناضد والحق يقال مخصصة فقط لعمل المستخدمين المكتبي. ومن يريد أن يعمل عليها من غير المستخدمين كان لا بد له الحصول لا على موافقة ايفان فحسب بل كذلك على موافقة الآخرين ذوي المناصب الأكبر. الا ان ذلك كان يتحقق على نحو غير ملحوظ وبدون اية رسميات.

وقد اتفق لنا نحن المستشرقين أن تعرفنا على المكتبة منذ الصفوف الأولى. فقد كنا في حاجة الى الكتب التعليمية،

والمصادر الأخرى، وخاصة المعاجم الشرقية، التي كانت دائما تقريبا بلغات أجنبية، وكان من الصعب ايجادها في محلات البيع. وكان ثمنها خياليا بالنسبة للطلاب اذا أريد الحصول عليها من الخارج. وكانت المكتبة جيدة الترتيب. وكان الطلبة المستشرقون يتمتعون بحق استعارة لا ستة كتب بل ١٢ كتابا في وقت واحد. وكان هؤلاء السعداء الذين كانوا يفلحون في اخذ الكتب قبل فترة التهافت العام، يستعيرون المعاجم احيانا حتى الى بيوتهم. أما الآخرون فكان عليهم أن يعملوا في قاعة المطالعة. ولم يكن هناك أي تعب او ازعاج بالنسبة لي من العمل بالمكتبة اذ كنت اعيش في مبنى من مباني الجامعة مقابل فنائها.

وكنا نتسلم الكتب من خلال نوافذ في القاعات الداخلية للمكتبة حيث كان يعمل صغار أمنائها من ناحية وظائفهم لا أعمارهم. وكانوا يتفرسون فينا ويحددون بسرعة وزن كل طالب بلا خطأ. ودون أي كلام نما معدل الاستعارة لأكثرية الطلاب حتى ١٨ كتابا بل انه كان يزيد على ذلك في ظروف الحاجة الملحة. وسرعان ما عرف هؤلاء الأمناء احتياجاتنا العادية. وعندما كانت جاكتتي تظهر على النافذة يرن من هناك صوت أمين مكتبة غير مرئي في الظلام: «أيلزمك اليوم «سوبلمانت» أو «ياقوت»؟ وبعد جوابي كان يظهر «Supplement»، أي معجم دوزي المشهور او معجم البلدان لياقوت باجزائه الستة وبشهرته التي لا تقل عن

سابقه لدى الطلاب المستعربين الذين قاموا بكتابة « بحث اجازي » بدلا من الامتحان للنقل من السنة الثالثة الى الرابعة.

وقد مرت ظروف اكثر صعوبة الا أنها كانت عادة تحسم ببساطة. وذات مرة جذبني عنوان ممتع لكتاب جديد وصل الى المكتبة حديثا هو «Provincia Arabia» لبريونوف ودوماشيفسكي فطلبت لنفسي هذا الكتاب الذي لم أكن أعرف ماهيته. وفي اليوم التالي وعلى غير انتظار عاد اليّ أمين المكتبة لا بالكتاب وانما ببطاقة الاستعارة وقال لي: « ان الكتاب لا يعطى للطلاب، لأن فيه كثيرا من الخرائط والجداول ولهذا فان كريسبيرغ يطلب منكم مراجعته بهذا الخصوص ». وانتابتني حيرة من هذه الأمور غير المتوقعة، وسرت وراء المستخدم لأول مرة في تلك القاعات الداخلية للمكتبة حيث كان يجلس هناك على منضدة عادية في قاعة عادية أيضا كبير أمناء المكتبة آنذاك الذي لم يحصل بعد على لقب « مدير » وهو الكسندر رومانوفيتش كريسبيرغ. وقد عيّن في هذا المنصب ليواصل تقاليد « زاليمان ». وزاليمان هذا هو مؤسس العصر الحديث في حياة المكتبة الجامعية وقد أصبح فيما بعد عضوا في الاكاديمية ومديرا للمتحف الأسيوي ومكتبة اكاديمية العلوم.

وقد قال عالمنا المستشرق في الدراسات التركية ف. د. سميرنوف الذي لم يكن يحب الألمان وكان يسخر منهم

ومن عاداتهم في طبع كل الفهارس تحت عناوين لاتينية، انه كان يسيطر على المكتبة من قبل زاليمان الريفيلي (نسبة الى مدينة ريفيل) ويسيطر عليها الآن كريسبيرغ الديربتي (نسبة الى مدينة ديربت). على أنه ينبغي الاشارة الى شيء واحد هو أن نظام المكتبة صار عظيما بفضلهما. ومنذ تلك السنين صارت المكتبة تحمل طابعا اوروبيا كاملا. وفي تلك الفترة ابتدأ كريسبيرغ ـ الصارم الجاف العجوز القصير القامة ـ يقاسي من شدة مرضه بالضيق الصدري ومن مرض آخر يشبه السرطان. وسرعان ما حمله المرض الى القبر. وقد كانت عادته أن يدور مرة كل يوم وفي ساعات محددة، على جميع طوابق المكتبة محدثا في أثناء سيره صوتا موسيقيا رتيبا يسمع دائما على بعد عدة حجرات. ولم يكن يخيف أحدا، ولكنه كان رسميا الى حد ما وكان لا يغير حلته الرسمية، وكان الجميع في المكتبة يطيعونه دون اية مجادلة.

ومثلت أمام الرئاسة. وأنا ما أزال غير فاهم السر في استدعائي انا بالذات. وفجأة رأيت على المنضدة مجلدين كبيرين كتب على كعب غلافهما بخط مضغوط «Provincia Arabia» . وعندما لاحظ كريسبيرغ اتجاه نظري سألني: «أتريدون اخذهما الى المنزل؟» وبالطبع فان هذا لم يخطر ببالي. وكنت أريد أن أطلع على الكتاب فقط في قاعة القراءة. وازاء هذه المفاجاة غير المنتظرة لم اتمالك

نفسي من ان اتمتم بكلمات غير واضحة؛ ولعل كريسبيرغ لم يفهمني. فقد قال: «ان الكتاب لا يعطى للطلاب، لكن قولوا، حتى يسجلوه باسمي وتأخذوه». واستغربت من ثقته فيّ من النظرة الأولى. وعلى كل فقد أخذت الكتاب الى المنزل وأخذت هناك أدرس المطبوع اللطيف النادر عدة اسابيع ودونما تسرع.

وكان عملي في المكتبة كباقي الطلبة في قاعة المطالعة المخصصة للطلاب والتي كانت تقع في الطابق الثاني. وكانت نوافذها تطل على فناء الجامعة. وهناك كان الجو هادئا وخاصة في المساء. وكان الطلاب الذين يجلسون على المناضد للعمل قليلين، وكان أكثرهم لا يأتون الا لتسلم الكتب أو تسليمها. وهناك جمعت مادة لبحثي السنوي ولبحثي من أجل المدالية الذهبية لعامي ١٩٠٤ـ١٩٠٥. وغرقت لأول مرة مع المؤرخين والجغرافيين العرب الذين انهالوا عليّ بأعدادهم الغفيرة من بطون الكتب المطبوعة بالطبع. على أن صغار أمناء المكتبة ــ الذين كانوا يعملون عند النوافذ المعروفة الخاصة باستعارات الطلبة ــ لم يكونوا دائما ملبين لطلباتي.

في الحالات الصعبة كان يظهر من قلب المكتبة أحد كبار أمناء المكتبة هو س. ف. لاريونوف الذي كان انسانا فريدا من نوعه وكان معروفا جيدا لدى المستشرقين لأنه كان يعتبر في المكتبة خبيرا أساسيا بالفهارس الشرقية، وكان

يعرف بعض اللغات الشرقية. وقد كتب بخط يده معظم البطاقات الفهرسية للمطبوعات الشرقية. كان انطباع الطلاب عنه هو أنه غريب جدا. الا أنني، بعد أعوام كثيرة، عرفت الى حد ما قصة حياته. انها حياة أحد الفاشلين في تاريخ استشراقنا الذين كانوا يلتقون آنذاك لا في المكتبات فحسب بل وفي ادارة الرقابة الحكومية أو ادارة الضرائب. وكان يبدو عليه دائما بعض الضيق، وكان شديد الخجل قليل الكلام. وكان يسكن خارج المدينة، كما يبدو، في ضاحية ليغوفو وكان يسافر من هناك كل يوم الى عمله. وعلى ما يخيل لي لم يكن له بين زملائه أصدقاء مقربون اليه. ومنذ وقت بعيد تخرج بامتياز من معهد لازاريف للغات الشرقية في موسكو. وكان لا بد له من أن يشغل في المستقبل كرسي اللغة الفارسية. ثم أرسل بعد ذلك الى الخارج في باريس حيث درس بنشاط في مدرسة اللغات الشرقية الحية حيث كان يتعلم فيها تقريبا كل اللغات التي كانت تدرس هناك حتى اللغة الحبشية. وقد دافع بنجاح عن رسالة بالفرنسية élève diplomé (للدبلوم العالي) في مجال الأدب الفارسي. وقد نشرت هذه الرسالة في «Journal Asiatique» («المجلة الأسيوية») وظهرت هذه الرسالة كانما هي مؤلفه الوحيد المطبوع. لكن لماذا انقطع امتداد نشاطه العلمي بعد رجوعه الى روسيا؟ ولماذا قضى كل حياته في المكتبة الجامعية دون أن يحس به أحد؟ ولماذا

كان منطويا على نفسه؟ كل هذا كان غير معروف لي. وهو لم يتحدث عن الماضي مطلقا، وكان يلوذ بالصمت دائما ازاء كل الاسئلة التي توجه له عن فترة وجوده في الخارج. لكنه كان يتحدث بالفرنسية بطلاقة مع الأجانب في زياراتهم النادرة للمكتبة، هذا بالرغم من أن خجله المألوف يتزايد في مثل هذه الظروف الى درجة غير معقولة. وكان يعمل في المكتبة كثيرا لكنه كان دائما في اعداد فهارس وبطاقات. وقد قام بكتابة بطاقات الفهارس للمكتبة الموقوفة المعروفة باسم ف. ر. روزن، في تلك الفترة التي كنت موجودا فيها في الشرق. وعاش مدة طويلة وكان احيانا ما يحتفل في الجامعة بذكرى تاريخ خدمته. وكان من المؤسف في وقت الاحتفال رؤية هذه الشخصية المتضايقة الخجولة. وقد واصل العمل في المكتبة بعد الثورة وكان الانطباع الذي يثيره بين الجيل الثالث من أمناء المكتبة يذكر بالفيل المنقرض في العصر الثلجي القديم او بآخر رجل من قبيلة الموغيكان من الهنود الحمر.

وفي فترة تلمذتي كان هذا المستخدم الخفي الغريب الى حد ما هو الوحيد الذي وضح كل الأشياء المكتبية غير المفهومة والتي تتعلق بالمطبوعات الشرقية. وبعد ذلك عندما تعرفت مع مخطوطات مكتبة الجامعة وجدت من جديد البطاقات التي كتبها بيده. وقد مات في العقد

الرابع من هذا القرن مصابا بالشلل ومنسيا من الجميع عدا واحد او اثنين من معاصريه من المستخدمين.

وعبرت من قاعة القراءة للطلاب الى قاعة الاساتذة التي تقع في الطابق نفسه، الا ان نوافذها تطل على الحديقة، وهي مجاورة لغرفة تسليم الكتب ذات النوافذ الصغيرة لتسليم الكتب للطلبة. وكان عبوري هذا في كانون الثاني (يناير) ١٩٠٦ مصحوبا بأشياء غريبة ممتعة نوعا ما.

ذلك أنني كنت قد أديت الامتحانات الرسمية في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٥ وقال لي ف. ر. روزن أنه قد تقرر أن أبقى للعمل بالجامعة وأنني سأكون مسجلا في عداد هيئة المعلمين من أول كانون الثاني (يناير)، الا أن مجلس الكلية لم يتخذ القرار الرسمي الا في منتصف هذا الشهر. ومنذ أول زيارة لي للمكتبة في الثاني كانون الثاني (يناير) برز سؤال شكلي: بأي بطاقة أستطيع أن أستعير الكتب؟ ببطاقة الطلبة او ببطاقة الاساتذة كباقي العاملين في الجامعة؟ وآنذاك كان كريسبيرغ مريضا دون أمل في شفائه وحل مكانه كبير أمناء المكتبة م. ا. كودرياشوف تلك الشخصية العجيبة ايضا في كثير من الاحوال. ونحن نعرفه جيدا منذ أيام التلمذة ذلك لأنه كثيرا ما كان يظهر عند نوافذ تسليم الكتب مساعدا صغار أمناء المكتبة خاصة في تلك الأوقات التي ساد فيها التهافت العام. وعلى كل فقد أوصلوني من جديد

الى مكتب المدير الذي كان يجلس عليه شخص صغير هو م. ا. كودرياشوف. ونظر اليّ من فوق نظارته الكتعاء المستقرة على أرنبة أنفه وسألني بجد وبصوت جهوري أجش كعادته: «من أنتم؟ طالب؟» فأجبت: «لا ــ انني انتهيت من الامتحانات في شهر كانون الاول (ديسمبر)». «من أنتم اذن؟ يعني استبقيتم للعمل في الجامعة؟». والى هنا أصابني شيء من الخجل وأجبت بالنفي موضحا له أن عملي بالجامعة قد تقرر، الا أن مجلس الكلية لم يصدق على هذا بعد. واستغرق في التفكير مدة دقيقة وهو على سابق جده ثم انهى هذا الحوار القصير قائلا: «يعني انتم ــ لا شيء. خذوا الكتب مسجلة باسمي». وهكذا تخطيت ببساطة مشاكل الرسميات وجلست في قاعة القراءة للاساتذة غير متأثر تماما من أنني «لا شيء». وبعد شهر تقريبا كان قد صدق على قرار عملي بالجامعة من الوزارة.

وبدأت الفترة الثانية لعملي بالمكتبة. وآنذاك أمكنني أن أبحث بنفسي في الفهارس وأن أمشي في كل الحجرات وأتسلم بنفسي الكتب بكميات غير محدودة. وكان يلزمني مرارا أن أنزل الى أسفل في الشعبة الشرقية. ورويدا رويدا استطعت أن أحصل على عطف «المتفائل» ايفان وذلك عندما رأى أنني لا أستعد لامتحان دراسات الماجيستر فحسب بل وأفكر أيضا في رسالة الماجيستر.

وبدأت الدروس مع ف. ر. روزن. وقد حملتني هذه

الدروس على أن أحيط نفسي بالمعاجم العربية منها «تاج العروس» بأجزائه العشرة و«لسان العرب» باجزائه العشرين وكلها كانت تحت يدي دائما. وقد أوجد ايفان «للسان العرب» خزانة صغيرة خاصة تسير على عجلات وذلك عندما رأى أن المنضدة لا تكفي لأكوام الكتب الضخمة المتراكمة. وكان من الصعب عليّ في الفترات الاولى أن استخدم هذه الكتب الضخمة وكنت أجلس أحيانا قرابة خمسة أيام لأعد بطريقة مرضية لحد ما عشرين بيتا من أجل عملي مع روزن كل يوم اثنين. وآنذاك صارت الكتب القريبة الى قلبي تجذبني الى جوانب أخرى ايضا. ولقد أردت بحيوية الشباب أن أقرأ كل ما يتعلق بالاستعراب في المجلات الخاصة منذ وقت تأسيسها. ولقد نظرت وقرأت بظماء عشرات الأجزاء لمختلف المطبوعات الدورية التي كانت موجودة بأكملها آنذاك في المكتبة. لكنني سرعان ما وجدت أنني لا أستطيع أن أستحوذ او أحيط بكل هذه الكتل فأخذت أحدد لنفسي مصادر متسلسلة تتعلق فقط بدراسة الشعر العربي وما عدا ذلك كنت أسجله في بطاقات مكتبتي التي كانت تنمو باستمرار. وكنت أجلس طول الأيام في المكتبة لا في الصباح فحسب بل وفي المساء أيضا عندما لا يوجد عمل لي مع روزن. وعرفني كل أمناء المكتبة وعرفتهم جميعهم وأصبحت جزءا لا يتجزأ من المكتبة مرتبطا بكل همومها وشؤونها.

وبعد وفاة كريسبيرغ أصبح المدير بالطبع م. ا. كودرياشوف الذي كان مساعدا له مدة طويلة وتلميذه في التخصص بالمكتبات. وبه ابتدأ عصر المديرين الروس للمكتبة. وهو من الوهلة الأولى يثير في النفس انطباعا فكاهيا الى حد ما: فهو قصير القامة ذو رأس كبيرة يزينها شعر منفوش وتراه باستمرار يلتقط نظارته الكتعاء برباطها الطويل التي لا يستقر لها قرار على وجهه. وهو يتكلم دائما بلهجة الجد وبصوت أجش منخفض، ولكن غالبا ما كانت تشع في عينيه شعلة فكاهة طبيعية. وكان من الصعب التسليم بأنه لا يخلع على نفسه رداء الجدية. ولقد كان رجلا خيرا لين الجانب، استطاع مع ذلك أن يمسك في يديه بزمام النظام في المكتبة عملا بوصية زاليمان وكريسبيرغ. على أنه كان عزبا يعيش في وحدة تامة ولم تكن لديه عدا المكتبة أية هواية اخرى. وكثيرا ما كان يمكث في المكتبة طول الليل قبل أن يعهد الى مستخدمي المكتبة بالحراسة الليلية بمدة طويلة. وكان يمضي الليل مرتديا ثيابه نائما على أريكة صغيرة تتناسب مع قامته القصيرة، قائمة في أحد الأركان بين الخزائن في الطابق الثالث. وفي تلك الامسيات كان يسمح لي بالعمل في المكتبة كما أريد. ذلك لأنه كان يبقى هناك حتى الصباح ويغلق الباب بنفسه بعد انتهائي من العمل. وكم تحاورنا معا في تلك الأمسيات حول كثير من الموضوعات التي

تتعلق بالمكتبة وبالعلم وبموضوعات أخرى جد متنوعة. وكان حوارنا هذا بصفة خاصة فيما بعد في سنوات الخراب والدمار عندما بدأت كل الحياة تذبل، على ما يبدو، من البرد والجوع. وقد مات هو نفسه من الجوع والضعف العام. وولى غير آسف على نفسه بل على المكتبة وعلى حياة مستخدميها الذين هلك الكثير منهم أمام عينيه بهذا السبب نفسه.

كان كودرياشوف فاشلا في حياته العلمية مثله مثل س. ف. لاريونوف. وقد قام في سنوات التلمذة بنشر أحسن المحاضرات التي أعدها وألقاها على الطلبة اساتذتهم. وترجم في شبابه الى الروسية «اغنية عن النيبيلونغ» بوزنها الشعري الأصلي. وهو عمل يعتبر ضخما وجديا وان كان ليس بالغ العبقرية الا أنه جيد الصنعة. وقد أعطته اكاديمية العلوم — عن جدارة — مكافأة على هذا العمل. على أن المكتبة امتصت كودرياشوف منذ وقت بعيد ولم يعد بعد ذلك الى ممارسة عمله التخصصي. وقد يكون ولعه بالشراب جعل الخمرة تفعل مفعولها. ويجدر القول أن ولعه بالشراب كان اشد قبل تعيينه مديرا للمكتبة.

وخلفه، لوقت قليل حقا، أمين المكتبة الممتاز، أعني ا. ب. مورزين، غير الصالح قط للدور الاداري. كان يسبقني في الجامعة بسنتين او ثلاث وأذكره جيدا كطالب كان في قسم قليل الطلبة هو القسم الكلاسيكي بكلية التاريخ

واللغة والأدب. وكان من رفاقه المؤرخ المتخصص في العالم القديم البولوني ك. ف. هيلينسكي والثاني هو ا. ا. تولستوي العارف بالأدب اليوناني. وقد تمتع كلاهما فيما بعد بشهرة كبيرة في العلم. أما مورزين فلم يتغير اللهم الا اذا اخذنا بعين الاعتبار تغييره لحلة التلمذة الرمادية بحلة أخرى سيئة نوعا لا يجمعها تناسق او ترتيب. ومنذ شبابه كان يبدو في شكل عجوز: فهو قصير غير مكترث للثياب ذو شعر منفوش، قصير البصر جدا. وهناك في المكتبة حيث التحق بالعمل بعد انتهائه من الجامعة مباشرة كان يبدو قزما قميئا. وكان أحيانا يهرول على طريقه في غرف المكتبة اختصارا للوقت. ولم يكن عارفوه يعجبون لهذا، أما الطلبة في دهليز الجامعة الطويل فكانوا يقفون مندهشين من منظره العجيب وهو يعرض رباعته. وكان بعد انتهاء عمله بالجامعة يتوجه الى عمله الليلي بمكتبة الجمعية الجغرافية حيث سرعان ما شغل منصب مديرها. كان مناسبا تماما لهذا المنصب من ناحية أن هذه المكتبة خاصة وصغيرة وكانت هيئة مستخدميها مؤلفة من شخصين او ثلاثة. وقد كان موضع تقدير كبير من رئيس الجمعية يو. م. شوكالسكي الجغرافي المشهور. وكان مورزين كبير أمناء المكتبة الجامعية قد صار بالصدفة مديرا لها بعد أن رفض الآخرون أن يتولوا هذا المنصب. والأدهى من ذلك أنه كان مديرا للمكتبة في تلك السنوات الصعبة جدا وكان هو نفسه في حيرة ولم يستطع

أن يسيطر بيد قوية على دولاب العمل الضخم. وكان مستخدموه يحبونه على طريقتهم لكنهم كانوا ينظرون اليه دائما نظرة سخرية واستهزاء. وكان لا يتمتع بأية سلطة او نفوذ سواء في داخل المكتبة او في خارجها. وهو نفسه كان يشعر بهذا وقد قدم استقالته من هذه الوظيفة عند اول فرصة مواتية وأصبح من جديد لا يحس بوجوده احد لكنه مع هذا ظل أمين المكتبة الضروري في الجامعة وفي الجمعية...

هكذا كان وهكذا أنهى حياته سنة ١٩٣٩ مقاسيا في آخر أيامه شللا بسيطا. وكان من الصعب تصور وجوده خارج المكتبة، وكان هو نفسه لا يستطيع العيش بدونها. وكان في شبابه قد داعبته مختلف الأحلام والآمال. فتارة اراد أن يكون قسيسا وتارة اخرى فكر بان يكون معلما ريفيا. لكن هذه كلها كانت احلاما على طريقة بعض أبطال قصص تشيخوف. وطبعا لم يكن ليذهب من المكتبة لا الى هنا ولا الى هناك حتى ولو استطاع ذلك. ولم تكن لديه رغبات علمية يمكن أن تقلقه او تعكر عليه صفوه لكنه لم ينس اللغة اللاتينية كمتخرج من الجامعة واحيانا ما كان يدعى لتدريس اللاتينية لطلبة الطب وعلم النبات. وكان يستطيع في المناسبات تأليف رسالة تحية باللاتينية لأي احتفال تذكاري. وكان قادرا على التحادث باللاتينية وبصفة خاصة مع ا. ا. ماليين أستاذ اللغات

القديمة. والى جانب ذلك كان له في المكتبة نفسها مسامر آخر يتمثل في شخصية برونيسلاف اغناتيفيتش ابيماخ ـ شيبيلو الذي كان «كبير امناء» المكتبة الاخير الذي اذكره جيدا منذ سنوات التلمذة.

كان ابيماخ ـ شيبيلو يمثل شخصية ليست أقل طرافة، ولكنه كان على النقيض من الآخرين متعدد الجوانب على طريقته. وكان قصيرا، سمينا، كروي الشكل، ذا شعر نافر مقصوص بعناية، وكان لطيفا نظيف الملبس دائما على عكس الآخرين في المكتبة بل كانت تبدو عليه سمات الاناقة التي تتوفر أحيانا لدى العجوز العزب. وكنت قد سمعت عنه وأنا ما أزال بعد تلميذا في المدرسة الثانوية، اذ كان يأتي احيانا الى مدينة فيلنو لبعض اعماله العلمية في المكتبة العامة وفي قسم المخطوطات. وكانت هذه الأعمال تتعلق بصورة رئيسية بتاريخ الاقليم الغربي. على أنني تصورت أن الجزء الأول من اسم عائلته ـ «ابيماخ» هو اسمه وعجبت كثيرا لهذا الترابط الغريب بين الاسمين. وكان جميع الطلبة الراغبين بالدراسة في مكتبة الجامعة يمرون عليه قبل كل شيء، اذ كان يجلس الى منضدة عند نفس المدخل، وكان يقع على عاتقه ملء بطاقات الاستعارة. وكانت تتملكنا الدهشة دائما بسبب تمهله ودقته المعتادة في الكتابة. لكن خطه كان حقا على درجة فنية لا تضارع، وبخاصة عند توقيع

اسمه غير العادي بامضاء ملتو ماكر. وكان من حيث تحصيله عالما لغويا كلاسيكيا وكان يقوم بتدريس اللغة اليونانية باللاتينية في الاكاديمية الروحانية الكاثوليكية الرومانية التي كانت تقع آنذاك على الشارع الأول في جزيرة فاسيلييفسكي ببطرسبورغ وفي منزل كان تابعا من قبل لاكاديمية العلوم الروسية. ولقد عرفت بعد ذلك أنه كان يعتبر ايضا خبيرا بمجالات أخرى غير عادية أحيانا، اذ لم يكن ينقصه، في عداد ما يدرسه، غير تاريخ الأزياء الدينية الكنسية. ولقد تعرفت على أحد جوانب نشاطه وعن كثب، مع انه حاول في حدود الامكان الا ينشر أي معلومات عنها وذلك لاعتبارات مفهومة تماما في ظروف ذلك العصر. فقد كان شخصية بارزة في نهضة الأدب البيلوروسي. وكان على معرفة عظيمة باللغة البيلوروسية سواء في لغة الحديث الحية او في آثارها القديمة. وكان هو نفسه قليلا ما يكتب في الصحافة او المطبوعات لكنه كان يساعد بكل الطرق قضية النشر باللغة البيلوروسية والبيلوروسيين الموجودين في بطرسبورغ. وكان الشاعر البيلوروسي يانكا كوبالا الذي ذاع صيته فيما بعد غالبا ما يقضي الليالي عند في سنوات الدراسة نائما على صندوق في دهليز شقته الضيقة ولم يكن يانكا كوبالا وحده المدين له، بل كان ثمة بيلوروسيون آخرون مدينون بالفضل لأمين المكتبة هذا،

الذي كان لا يعرف أمر مساعدته للنهضة البيلوروسية الا الأقلون. وكان أخوه ينطوي ايضا على هذه الحماسة للحركة البيلوروسية، وقد كان مستخدما في ادارة الضرائب او الرقابة. وقد قدم هو وأخوه، كهواة، تمثيليات باللغة البيلوروسية الامر الذي كان حدثا كبيرا جريئا بالنسبة لبداية القرن العشرين. ولكن القدر لم يكافئه على كل هذه الاعمال البطولية المتفانية. ولقد دعي الى مدينة مينسك في وقت ما للعمل في تأليف معجم بيلوروسي. ولكن حدث له أن غادر عاصمة بيلوروسيا بسرعة عائدا الى لينينغراد كهلا عجوزا حيث مات هناك بعد أن عاش بائسا عدة أشهر رغم المساعدات التي نالها من مساعديه وأصدقائه القليلين في المكتبة الذين ما زالوا يذكرونه.

ولم يكن لنا نحن الطلبة علاقة مع كبار أمناء المكتبة فحسب بل وبصورة اكبر مع صغار أمناء المكتبة الذين كانوا يقومون بتسليم الكتب «عند النوافذ». وكان صغار أمناء المكتبة مجموعة خاصة من شخصيات جد مختلطة وبدون تحصيل عال عادة. وكان اكثرهم من ابناء الأمناء الصغار او مستخدمي المكتبات. وكان لي من بين جيلهم الاكبر بصفة خاصة ذكريات مع شخصين ـ ايفان كيريلوفيتش سادكوف وصديقه الدائم فوتي بافلوفيتش خريبتوف. ولقد عرفناهما نحن الطلبة تبعا لأعمال أخرى ايضا. وكانت الخدمة في المكتبة الجامعية

تعتبر غاية في السوء من ناحية المرتبات. ولم يكن يستطيع أن يعيش بدون مساعدة من عمل آخر الا العزاب الذين يعيشون بمفردهم أمثال م. ا. كودرياشوف. وكان الصديقان سادكوف وخريبتوف يتوجهان بعد انتهاء عملهما اليومي في المكتبة الى حديقة الحيوانات في الحي البيتروغرادي. وهناك في شباكين متقابلين عند بوابة الحديقة كانا يبيعان تذاكر الدخول حتى آخر الليل. وكانت حديقة الحيوانات آنذاك مشهورة لا بحيواناتها بل بالمطعم. وكان يتسنى لبعض الطلبة المتوجهين الى هناك أن يتقابلوا مع معارفهم من أمناء المكتبة في موقف غير عادي. وكان خريبتوف عابسا واكبر سنا وغالبا ما كان يقع تحت تأثير بخار الخمرة. فيما مضى كان يعمل في المكتبة الخاصة بالقسم التعليمي للغات الشرقية التابع لوزارة الخارجية وكان يحاول التاكيد لي بان البارون روزن عند تأليفه لفهرس المخطوطات العربية والفارسية في القسم، قد قام ببساطة بنقل ما في فهرس المخطوطات الموجود هناك الذي أعده المدير السابق البارون ديميزون. اما كيف ألف مثل هذه الأسطورة الخيالية، فقد ظل هذا الامر غير مفهوم عندي.

اما سادكوف فكان يبدو في شباب دائم، وفي الوسع القول ان عيوننا لم تلحظ اي تغير طرأ عليه مع انه سرعان ما ظهر بين صغار أمناء المكتبة اثنان من أبنائه

وكان على الدوام هادئا مؤدبا حسن الملبس وكان الانطباع الذي أثاره كأمين مكتبة هو أنه انسان واسع الثقافة. وكان مصدر غمه الدائم أنه لم يحصل على تعليم عال الامر الذي كان سببا في الحيلولة بينه وبين الترقي في سلم الوظيفة. وعند تأسيس الجامعة في مدينة برم دعي الى تنظيم مكتبتها ويقال أنه قام بهذا العمل خير قيام.

وكان من بين صغار أمناء المكتبة أشخاص طريفون. ففي الطابق الاول كان يجلس «الدكتور فريدولين» لكتابة البطاقات اللامتناهية. وقد تعرف بي في ذلك الوقت عندما كنت انتقل من قاعة الأساتذة الى الاسفل. وكان لا يستطيع أن يتحدث عن شيء الا عن علم الأجناس البشرية. وكان يرى أن الأصل الوحيد لكل العلوم هو قياس الجماجم البشرية، وهو ما كان يستحوذ على كل قوته تقريبا. وقد كان نزولي الى أسفل المكتبة ــ حيث سمعت ذلك الحديث السابق بين اثنين من المستخدمين ــ دون أن يشعر به أحد. وكان قد أجيز لي الدخول الى هناك دون أية ضجة. وكانت هذه الاجازة لا من ايفان فحسب بل ومن جميع كبار رجال الادارة بالمكتبة. وكان هذا في تلك الفترة التي بدأت أشعر فيها لأول مرة بقلب القسم الشرقي بالمكتبة اي مخطوطاته التي كانت هناك في الخزائن في نهاية غرفة المكتبة التي كان يجلس في مواجهتها «الدكتور فريدولين». وكانت منضدتي وسطهما تقريبا.

وكان كل من الشعبة الشرقية بمطبوعاتها والخزائن بمخطوطاتها قريبا مني وعلى بعد واحد. ومن الصعب عليّ الآن – وقد سحرتني المخطوطات بكل قوة – أن أميز أحيانا: أيهما يثار اشد بروزا في ذكرياتي؟ الناس أم الكتب التي أرتني أناسا راحلين منذ وقت بعيد وصورتهم كما لو كانوا أحياء؟

هناك اكتشفت لاول مرة، وشعرت تماما بالشيخ الطنطاوي الذي كان يعمل منذ زمن بعيد مضى في كرسي الاستعراب. بل لقد شعرت بسلفه المصري من القرن السادس عشر، الشيخ الشعراني الذي تكشفت معالمه أمامي وضاءة لامعة حين عثرت بصورة لم تكن متوقعة على التاريخ الفريد لقصة حياته. وكان روزن قد نسي، مصادفة، في هذا المخطوط، الاوراق الخاصة بملاحظاته عنه والتي تتحدث عن عمله الذي لم يعرفه أحد. كنت سعيدا في مواصلة هذا العمل وحاولت على اساس مسودة ملاحظات روزن أن استعيد سير أفكاره! ان مخطوط المجموعة المغربية الذي ضاعت نهايته قد جذبني بالغازه وبخيوط أفكاره الخفية التي ربطتني لا بالعرب القدماء في الاندلس بل وبالمستعربين الأسبان المعاصرين. وفي تلك السنوات الباردة، بعد الخراب والتدمير، كنت القي المحاضرات وسط الرفوف بما عليها من الكتب، هناك في الطابق الثالث من المكتبة، التي حنت بعطفها على تلك

الطائفة الصغيرة من المستعربين، بجوها الذي ترتفع فيه درجة الحرارة عن الصفر على كل حال. وشعرت بصفة خاصة بهذه العلاقة الخالدة بين الناس والكتب حيث لا يمكن عزل المخطوطات عن الانسان الحي.

فلتجد مخطوطات الجامعة انعكاسا لها على صفحات ذكرياتي: لقد دخلت هي ايضا في حياتي بقوة وغالبا ما كانت تثيرها باشد مما تثيرها الحوادث الخارجية. وكانت تنفذ احيانا الى ذاكرتي الى الأبد لدى أول لقاء لي معها بصورة أقوى من لقاءاتي التي أذكرها مع الناس.

٢ ـ معارض رسالة ماجيستر لأول مرة

(١٩١٤)

ان المخطوطات تقرب بين الناس. والتعرف بها يشبه الغوص في أعماق الطبيعة او فهم الفن وتمثله. وهي بهذا توسع أفق الانسان وتشرف كل حياته وتجعل منه عضوا في الحركة الانسانية العظيمة في طريقها الثقافي. فالمخطوطات اذن كالطبيعة وكالفن يجب أن تكون ثروة لكل الناس الذين يفهمونها ويحسونها ويجب أن تكون مفتوحة أمام كل العلماء. فعلى الناس الذين وهبهم القدر مؤقتا وفي حدود حياتهم ان يكونوا أصحابا او خزانا للمخطوطات ألا ينسوا هذا. وعليهم أيضا ألا يصبح مثلهم

مثل الفارس البخيل. وانه لمن المحزن أن نرى كيف أن النزعة الشريرة في الطبيعة الانسانية تجعل المخطوطات أحيانا سببا للشقاق، وكيف تقوم حواجز بين البشر او تغدو حتى ادوات للمضايقة. وفي هذه الحالة فان قدر العالم قد يسوقه على غير انتظار الى مواجهة ابتلاءات صعبة. لكن مع الارادة الخيرة يمكن التغلب على كل هذه الابتلاءات. وعلينا أن نذكر دائما أننا كأفراد لسنا الا ضيوفا على هذه الأرض، اما العلم فدائم وخالد. ولا بد من التفكير لا بأنفسنا بل في حركة العلم الى الأمام. وليس مهما لها دائما من هو بالذات الذي اسهم بقسط في تقويتها. وانني لأذكر في شبابي احدى الحوادث مع مخطوط استطاع بسهولة أن يحدث تصدعا في العلاقات بين عالمين: أستاذ وتلميذه. وها أنا الآن وبعد ثلاثين عاما أشعر بارتياح لأن كلا منهما استطاع آنذاك أن يبقى على مستوى العلم والانسانية كما كان يفهمانهما.

ففي بداية ايلول (سبتمبر) ١٩٠١، وفي يوم قصير قاتم من ايام بطرسبورغ، كان طلاب الصف الأول بكلية اللغات الشرقية ينتظرون أول محاضرة عن اللغة العربية. وكان منظر الكلية يبدو غير عادي. ومع أنه كانت قد خصصت للمحاضرات أرحب قاعة هي القاعة السادسة، الا أنها كانت مكتظة ولم تكف مقاعدها. ففي هذه السنة كان قد التحق ٥٦ طالبا بشعبة واحدة من الكلية هي الشعبة

العربية الفارسية التركية التتارية. اما من قبل فلم يحدث تقريبا أن كان مثل هذا العدد. وكانت المحاضرات الأولية في اللغة العربية اجبارية ولبعض الشعب الأخرى ايضا. وعلى هذا فان قاعة المحاضرات التي كثيرا ما كان لا يدرس فيها اكثر من شخصين او ثلاثة أصبحت تطن الآن كعش الزنابير. ولم تكن المناضد هي المكتظة فقط بل حواف النوافذ ايضا. وكان بعض الطلبة يقفون في الممر. وتوجه اكثرهم شطارة في وفود الى خادم الكلية «سافيلي» بطل معركة شيبكا الذي كان يقف دائما في وضع ثابت عند المدفأة في غرفة تعتبر ممرا يسميها الطلبة «مدخل الحمام» الذي يطل على «بئر السلم» من أحد الجوانب، وعلى ممر ضيق لقاعات التدريس من جانب آخر. وفي تلك الحجرة كان الطلبة يقضون استراحتهم بين المحاضرات او ساعات فراغهم.

وحين التمس الطلبة من سافيلي وضع منضدة أخرى، اكتفى بالابتسام والقول: «انتظروا، بعد أسبوع ستكون غرفة التدريس خالية تماما». وقد ظهر ان قوله صحيح. ففي المحاضرة التالية صار عدد طلاب اقل. اما الصف الثاني فلم ينتقل اليه من كل هذه الكتل سوى ٢٤ طالبا و١٢ فقط هم الذين استطاعوا أن يتخرجوا من الكلية مدخلين في هذا الحساب «الشيوخ» اي أولئك الطلبة الذين لحقونا من الصفوف العليا. وقد كان هذا منظرا

عاديا في كلية اللغات الشرقية، ولم يكن المعلم مذنبا في انصراف الطلبة عن تلك المحاضرات الأولية. وكنا في تلك الفترة ننتظر معلمنا في أول محاضرة. كنا نعرف فقط أنه أستاذ محاضر يسمى ا. ا. شميدت.

ودخل حجرة التدريس رجل في ريعان الشباب، عمره يقارب الثلاثين، في حلة مدنية جيدة كانت مألوفة في ذلك الوقت. فأعجبنا لاول نظرة بجماله الخاص، لا سيما عينيه البراقتين التي لا يمكن نسيانهما. وسار الى المنصة خجلا بعض الشيء ربما من منظر حجرة التدريس المكتظة. وبدأ المحاضرة بتمهيد الى النحو العربي، ووجهه لا يفتأ يحمر كل دقيقة. وكان كل شيء في المحاضرة واضحا ومفهوما. ونسينا للتو سابق فشلنا الذي كدرنا في الدرس الأول عن علم الخطوط العربية. وكان المحاضر تتاريا من القرم. كان خطاطا مشهورا حقا كما عرفت فيما بعد. وقد كتب امامنا على السبورة أشياء غامضة علينا ولم يستطع أن يوضح لنا بالروسية لزوم ما كتبه على السبورة ولا ماذا ينبغي علينا أن نعمله. ولقد نسيت محاولتي الفاشلة في الفوز بدراسة اللغة العربية بمساعدة كتاب أساسي في جزئين عن القواعد العربية لسيلفستر دي ساسي الذي طبع في بداية القرن التاسع عشر. وكانت هذه المحاولة في سنوات التلمذة بالمدرسة الثانوية. وها انا الآن قد تغلبت بسهولة على أسرار الحروف العربية

وعلى اوزان الأفعال وهو الشيء المرعب للكثيرين. ولم أكن أظن أن هذا القائد اللين شميدت الذي كانت له «عينا ظبي مرتعب» على حد تعبير أحد أصدقائي، والذي كان دائما يستمر في خجله أكثر منا نحن الطلاب، أقول لم أكن أظن أنه سيصير مع الزمن واحدا من أصدقائي الأقربين. ولم تشب عاطفتنا المتبادلة أية شائبة حتى موته عام ١٩٣٩.

على أن ا. ا. شميدت لم يقم بتدريسنا في الصف الثاني. وانفصلنا عنه قرابة عام. فقد كان من النادر جدا أن نقابله في الكلية. وطول هذه السنة كان هناك انطباع وحيد مرتبط به يلمع بوضوح. ففي أول كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٢ كان ن. ا. ميدنيكوف يدافع عن رسالته لدرجة الدكتوراه. وقام بدور المعارضين له (في المناقشة) كل من ف. ر. روزن وا. ا. شميدت. وقد أشار هذا الاخير في عرضه لملاحظاته الى مطبوع عن معجم عربي في تراجم الأدباء. وكانت مفاجأة لنا بصفة خاصة ان روزن اعتدل في جلسته آنذاك وسأل بحيويته المعروفة عن مكان طبع هذا المعجم. وقد رفع هذا مكانة شميدت عالية أمام عيوننا الساذجة. ذلك أن شميدت ظهر أحيانا متمكنا من معرفة أشياء ما زالت مجهولة لروزن نفسه. وشعرنا فيما بعد بفخر ليس بالقليل عندما سمعنا أن شميدت كان تلميذا لا لروزن فحسب بل وتلميذا أيضا

لغولدزيهير المستشرق البودابستي المشهور في الدراسات الاسلامية.

ولم يكن لقاؤنا مع شميدت الا بعد عام عندما كنا في الصف الثالث حيث قام بتدريس الفقه الاسلامي. ولقد فوجئنا بالتغيير الذي طرأ عليه. فقد صار أشيب الرأس، يسير متوكئا على عصا، ويبدو عليه الانهاك. وعرفت فيما بعد أن تلك السنة كانت شديدة القسوة عليه، بسبب ما أصاب عائلته من غم وكدر وكذلك بسبب مرضه وضرورة احتماله لعمل شاق مرهق لأعصابه لم يكن راضيا عنه كل الرضا. ولم تكن وظيفة الأستاذ المحاضر تكفل له من الحياة حتى المطالب البسيطة المتواضعة لرجل رب عائلة. وكان على شميدت أن يتحمل أعباء عمل اضافي آخر. وقد عرفنا بدهشة أنه كان يعمل مفتشا بمدرسة القيصر الكسندر الثانوية وبعد انتهاء عمله هناك كان يتوجه لعمل آخر هو امين تحرير جريدة «أخبار سانت بطرسبورغ» التي نشرها الامير أوختومسكي الذي كان رحالة مشهورا في عصره ومن المهتمين بثقافة الشرق الأقصى. كل هذه الأعمال التي كانت على عاتق شميدت ارتبطت ارتباطا سيئا مع الاستشراق الاسلامي والادب العربي كليهما. ولم تبق لديه وقتا للعمل فيهما وألقت خمولا دائما على انسان يسعى نحو أعمال خلقية واسعة في العلم وكان لديه لذلك موهبة غنية. ومع مرور الزمن فقط صار مفهوما لنا السر في

أن شميدت كان ينظر بوجل الى اسئلتنا العلمية الخارجة عن نطاق البرنامج المحدد للدراسة. ذلك أنها كانت تمس عنده جرحا لا يندمل (في حبه للعلم) وكانت الاجابة تتطلب أحيانا الرجوع الى بعض المصادر ولم يكن لديه وقت حتى لهذا. وكان بصورة عامة نادرا ما يأتي الى المحاضرات في صفنا الثالث، ولكنه، عند لقائي معه، كان يبدي نحوي رغبات خيرة طيبة على الدوام.

وفي عطلة صيف ذلك العام اتفق لي ان قرأت القرآن كاملا، وبمساعدة معجم كركاس للقرآن بالطبع الذي لا يستغنى عنه، وبمساعدة ترجمة سابلوكوف الى الروسية. وقد وصلت الى شميدت اشاعة عن هذا، وفى الخريف حياني بابتسام ملقبا اياي «بالحافظ». وفي الصف الرابع انقطع من جديد لقاؤنا النادر في الجامعة، ذلك لأن تدريس الاستعراب وقع في صفنا على عاتق روزن. طول هذا الوقت انجذبت انجذابا شديدا نحو شميدت الذي شعرت نحوه شعورا غريزيا بأنه ذو موهبة علمية كبيرة وروح خيرة عظيمة. الا انني كنت أخجل من أن أتوجه اليه بالسؤال لشعوري بأن هذا يولد لديه أحيانا ألما ورغبة في أن ينكمش في قوقعته. ولقد عرفنا أنه منذ وقت بعيد يعد بحثا علميا كبيرا عن عالم صوفي مصري من القرن السادس عشر هو عبد الوهاب الشعراني. وكان من المتوقع ان يغدو هذا البحث دراسته لدرجة الماجيستر، لكنني بعد عدة

أعوام عندما انتهيت من الجامعة وواصلت دراستي مع روزن سألته بدافع حب الاطلاع عما اذا كان شميدت سيناقش عما قريب رسالته. فهز روزن يده بحزن وقال: «ايه! لقد ضاع الكسندر ادواردوفيتش (شميدت). قلت له من قبل ان عليه ألا يتزوج بسرعة هكذا. انه رجل جد موهوب». وبدأ روزن بحيوية يقص ما قاله صديقه غولدزيهير الذي اعتبر شميدت واحدا من احسن تلاميذه الذين أتوا اليه في وقت ما من أوروبا وأمريكا. وقد تألمت لهذا المسكين شميدت اكثر من ذي قبل وحاولت في حدود قوتي الضعيفة أن أفتح قلبه وأجعله أكثر قربا الى اهتمامات الحياة العلمية. وبدا لي أحيانا أن كل شيء سيصير على ما يرام، الا أن موت روزن كان بالنسبة لكلينا ضربة قاسية. وعندما كنت في بلاد الشرق شعرت من رسائله أنه يعيش من جديد تحت وطأة كمد شديد، حتى أنه رفض أن يلقي محاضرة عن روزن في الجلسة التي أقيمت بمناسبة ذكراه. وكان في استطاعته أن يقوم بهذا العمل خيرا من جميع المستعربين.

واثناء رحلتي في الشرق حاولت أن أعيد اليه الحياة، ونقبت في القاهرة عن أي مادة علمية ولو بسيطة عن محبوبه الشعراني حتى لا يترك دراسته عنه. ورجعت الى بطرسبورغ، وكان فرق العمر بيننا اذ ذاك اقل ظهورا مما في الماضي. وكان كل منا قريبا الى الآخر تماما بفضل

عملنا معا في كرسي الاستعراب. فحملته على أن يبدأ في آخر الأمر بطبع رسالته وأن يتغلب على عدم الثقة في نفسه وقوته، وهو المرض الذي أصابه. وكان عملانا يسيران في خطين متوازيين. وفي وقت واحد طبعت رسالته وطبعت رسالتي عن الشاعر الوأوأ. ولقد كانت الحوائل كثيرة والأمور تتحرك في بطء. وكان شميدت يتأرجح مرارا ويقوم أحيانا من جديد بطبع كل المادة الجاهزة التي أعدها. وكان في رسالتي للماجيستر نص عربي صفت حروفه في هولندا في مطبعة بريل المعروفة لدى جميع المستشرقين. وقد تطلب حجم العمل نفسه وقتا كبيرا، وكنت أقوم بتصحيح جميع تجارب الطبع لرسالة شميدت. ونادرا ما كانت تحدث معركة بيني وبينه بسبب بعض مسائل ثانوية بحتة، وأنذرته انذار الأصدقا، بأنني سأقص حكاية هذه المعركة عندما سأقوم بمعارضته في مناقشة رسالته. ولم ينقطع عملنا بقيام الحرب العالمية الاولى. وأخيرا في بداية خريف ١٩١٤ كانت كلتا الرسالتين جاهزتين. وقررت باصرار أنني لن أسلم رسالتي الى الكلية رسميا الا عندما تتخطى رسالة شميدت كل اجراءاتها الرسمية.

وحدد يوم ١٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٤ موعدا لمناقشة رسالته وأعددت نفسي لهذه المناقشة بجدية كاملة. وكان مجال الاستشراق الاسلامي يقف بعيدا عن

اختصاصي المباشر في الأدب العربي. لكنني أردت بحكم الشباب الا ألطخ وجهي بالوحل. وأردت أن أعرض لذلك الجمهور الذي كان يقبل بكثرة نسبية على المناقشات العلمية في ذلك الوقت، كل اهمية عمل شميدت بالنسبة لمجالنا العلمي. ولا أخفي أن بعض الزملاء في الكلية الذين لا يحسنون معرفة عمق علاقتنا الودية، ونظرتنا الى العلم، كانوا ينتظرون نوعا من المشاهد المسرحية من المرجح فيها أن يقوم أثنان من شباب العلماء: أستاذ وتلميذه بمعارضة كل منهما للآخر ويقوم كل منهما بمحاولة اغراق الآخر. الا انهم كانوا على خطأ في هذا الأمر. وقد تذكرت بابتسام حكايات روزن عن الصداقة الأكيدة التي ربطت بينه وبين معلمه كركاس منذ الشباب وكيف أن أعضاء بعض الكراسي العلمية الأخرى وبخاصة كرسي الدراسات التركية، الذين كانوا يناصبون بعضهم العداء الدائم، كانوا ينتظرون اليوم الذي يحدث أن تهب فيه عاصفة بين كل من روزن وكركاس.

وكنت أعرف جيدا رسالة شميدت، فقد قرأت تجارب طبع جزئها الاساسي ولم يكن عندي أي شك في ان الرسالة تمثل حدثا كبيرا في مجالنا العلمي الوطني، وتعد خطوة كبيرة في مجال العلم العالمي. لكنني في نظرتي الى الرسالة وضعت لنفسي هدفا يتطلب أمورا اكثر من اللازم. فقد قررت أن أتحقق منها آنذاك وفقا لكل الأصول والمصادر

التي تحتويها. لكنني وجدت كل شيء في هذه الناحية على ما يرام. وبالطبع كانت أحيانا تنكشف أشياء بسيطة تافهة وأشياء أخرى غير منسقة نجمت من جراء طول مدة دراسة الموضوع وطول مدة طبع الرسالة. أما الأصول العربية للرسالة فقد وضح أنها مدروسة دراسة كاملة ولم اكتشف أي نقصان فيها. وهكذا ظل عملي حتى منتصف ايلول (سبتمبر) عندما بقي ما يقرب من شهر على مناقشة الرسالة.

وبينما كنت أستعد لمعارضة رسالة شميدت كنت في الوقت نفسه أواصل عملا آخر شغفت به في ذلك الحين. فقد كنت أحلم بتأليف فهرس مسلسل للمخطوطات العربية التي كانت في مكتبة الجامعة. وقمت بالتدريج باختيار المؤلفات التي اهتممت بها بدرجة كبرى من الفهرس الذي قام بطبعه زاليمان وروزن في وقت مضى. وذات مساء، فيما كنت أستريح من تعب اليوم، غرقت من جديد في هذا العمل. وابتدأت يدي تكتب آليا عنوانا غير معروف. فأصابتها فجأة رعشة كما لو مسها تيار كهربائي. ولم تكمل يدي كتابة الكلمة وانساب القلم عفويا ساحبا ذيل الكلمة على الوريقة كلها. فقد وجدت أنه قد كتب في الفهرس بخط واضح عنوان كتاب غير معروف لديّ هو «تذكرة أولى الألباب في مناقب الشعراني سيدي عبد الوهاب». وهذا المرجع لم يكن في رسالة شميدت. فما

معنى هذا؟ في الصباح أردت أن أحل هذا اللغز فتوجهت الى الخزائن الخشبية المألوفة لدي بمخطوطاتها الشرقية في مكتبة الجامعة. لم يكن هناك مجال لسوء الفهم، فقد اتضح كل شيء بسرعة. ذلك أن مجموعة الأستاذ الشيخ الطنطاوي التي آلت الى مكتبة الجامعة كانت تتضمن فعلا سيرة واسعة نسبيا عن حياة الشعراني واجداده وأحفاده حتى القرن السابع عشر. وقد قام بتأليف هذه السيرة شخص يسمى بالمليجي الذي كان متوليا على مسجد الشعراني بالقاهرة حوالي عام ١٧٠٠. وقد عرف جيدا التراث الذي يرتبط بأهل بيت الشعراني. والمخطوط نفسه مكتوب عام ١٧٢٣. وليس المخطوط ببالغ الأهمية لكنه يكشف عن ترجمة فريدة لحياة هذا الصوفي، ويحتوي على فهرس كامل لمؤلفاته، ويحتوي على تفصيلات عديدة ممتعة على وجه العموم — عن تاريخ القرنين السادس عشر والسابع عشر. وعلى الفور اتضحت لي أهمية هذا المخطوط لدراسة شميدت. ولكن كيف استطاع هذا المخطوط أن يفلت من يده؟ لقد ظل هذا السؤال يبدو لي لغزا وخاصة في جزء واحد منه. فالمخطوط نفسه يبدو أنه فريد بدون شك ويشير الى ذلك عدم وجود أية اشارة لا الى المؤلف ولا الى المخطوط في كتاب بروكلمان المعروف لدى جميع المستعربين. وبروكلمان لم يستخدم تقريبا فهرس مخطوطات مكتبة جامعتنا. ويمكن ان شميدت لم

يوجه لهذا السبب اهتمامه الى هذا المخطوط. فيما بعد لعبت سخرية الاقدار دورها، الولوعة غالبا بالسخرية من العلماء. فان شميدت الذي جمع بانتظام مادة لعمله الطويل من برلين ومن ليبزيغ وليدن لم يفكر بأن ينظر في فهرس كان تحت يده من قبل لمخطوطات مكتبة الجامعة في بطرسبورغ حيث كان يعمل دائما في هذه المكتبة وحيث كان يوجد المصدر الأصلي الأساسي الذي على أساسه طبع أحد مؤلفات الشعراني في ملحق رسالته. وحتى أستادنا روزن لم ترحمه سخرية القدر. لقد ظل أعواما كثيرة يتحدث مع تلميذه عن الشعراني، فكيف لم يتذكر طول هذه الاعوام الكثيرة مخطوط تاريخ حياة الشعراني الذي أدخله روزن بنفسه الى الفهرس في وقت ما. ان هذا الأمر قد ظل الى الأبد بالنسبة لي واحدا من الألغاز في تاريخ علمنا، المرتبط على ما يبدو غير قليل من الارتباط بالمصادفات والمفاجآت.

ولقد ذهلت عدة أيام، لكن الأمر كان يتطلب حلا سريعا بسبب اقتراب مناقشة الرسالة. ولما كنت أعرف طباع شميدت فقد شعرت بأن اخباره بهذا الموضوع مباشرة، يعني لديه استدعاء نوبة من اليأس وقد يكون ذلك الى الابد مدعاة لعرقلة عودته الى العمل العلمي بعد أن بدأ يستقيم عودها. وفي الوقت نفسه لم يسمح لي ضميري العلمي بأن أخفي خبر هذا الاكتشاف الى ما بعد

مناقشة الرسالة. وأخيرا وجدت مخرجا من هذا الأمر. فقد كان واضحا لي أن المؤلف الذي طبعه شميدت يمثل دون شك مكسبا للعلم. فان هذا العمل بالطبع هو أكبر مما يستحقه مجهود لدرجة الماجيستر. وأما ذلك المرجع الذي اكتشف مصادفة فيمكن دراسته مع الزمن. وقد ظهر لي أن النتائج الأساسية التي بناها شميدت على أساس مواد أخرى لن تتأثر أو تتغير. وكان يلزم بالطبع أن أخبر شميدت قبل مناقشة الرسالة.

وسرعان ما هدأت عندما وصلت الى هذا الحل، الا اني بدافع من شبابي، سمحت لنفسي، قبل الكشف عن هذا السر لشميدت، بأن أقوم بلعبة صغيرة. وكنت آنذاك أتقابل معه كل يوم تقريبا فبدأت ألسعه بالأسئلة التي أمدني بها مخطوط الجامعة: كم زوجة كانت عند الشعراني؟ كم كان طول قامته؟ هل كتب هو عن هذه الموضوعات او تلك؟ ولم يستطع المسكين شميدت أن يجيب عن هذه الاسئلة بناء على المصادر المعروفة لديه، فكان يزداد اهتماما بمعرفة من أين حصلت على هذه المعلومات. وبعد أسبوع كشفت له وحده عن اكتشافي مشفقا عليه من طول المقاساة. وكان رد الفعل لديه هو بالضبط ما كنت أخشاه. فقد أراد من أول انطباع لديه أن يأخذ رسالته من الكلية وأن يؤجل حصوله على درجة الماجيستر. وكانت مشكلتي

الكبرى في اقناعه بالعدول عن هذا، بترك الامور تسير في مجراها.

واوشكت مناقشة الرسالة ان تؤجل لسبب آخر. وكما كان يحدث لي مرارا في الظروف المهمة في حياتي، حدث ان مرضت مدة أسبوع قبل مناقشة الرسالة وارتفعت درجة حرارتي حتى كادت تقارب الأربعين. ورقدت هامدا لا أتحرك. وابتدأ شميدت يقول من جديد انه واضح أن القدر لا يريد أن تناقش رسالته في وقتها. ولكن حدث، لحسن الحظ، أن الطبيب المنزلي الذي طلبت منه أن يجعلني أقف على رجلي ولو ليوم واحد، أعطاني على حد تعبيره «دواء يعطى للحصان». وتوجهت من على الأريكة مباشرة الى مناقشة الرسالة في «ردنجوت» كما هي العادة آنذاك وكان هذا الردنجوت بالايجار. وقد احسست اثناء المناقشة بشعور غريب، اذ سمعت صوتي بنفسي وكأنه ليس مني وكما لو كان المتكلم شخصا غريبا.

وعلى كل حال، جاء كل شيء على ما يرام. واستهللت كلمتي العادية ــ كمعارض «رسمي» في المناقشة ــ ببيت من الشعر العربي: «أعلمه الرماية كل يوم. فلما اشتد ساعده رماني». فنظر الي شميدت ــ وهو في ردنجوته أيضا ــ من على منبره وابتسم ابتسامة طيبة. وكان هو الوحيد من بين جميع الحاضرين الذي يعرف ما اقصد، وعن أي شيء سيكون كلامي. ولم أخف اكتشافي. لكنني

القيت عليه الضوء بالصورة التي رأيت أنها مناسبة للظرف القائم. وركزت كلامي على النواحي الأساسية الجديرة في عمل شميدت. وحرم اولئك الزملاء الفضوليون من «المسرحية» التي كانوا ينتظرونها وانتهت المناقشة بسلام.

لم يكن الجميع متفقين معي في وجهة نظري. ولم يكن الجميع فاهمين لها أيضا. وقد حدث أن سيدة من بين الحاضرين قليلة المعرفة بنظام المناقشات العلمية، فجعت بما تخيلته أنه هجوم على شميدت، وعبرت عن غضبها بصوت مسموع. لكنها هدأت قليلا فيما بعد عندما اوضح لها شميدت حقيقة الأمر بعد جهد كبير. وعلى كل حال فقد كان لدى بعضهم من عدم الرضا ما هو أكثر من هذا. وفي اليوم التالي، في باحة الجامعة، قابلت معلمي المحترم الأستاذ تورايف. وكان غاضبا لأن الكلية قبلت رسالة ينقصها أحد المراجع الأساسية ولم أسلم أنا أيضا من غضبه. وحاولت أن أشرح له وجهة نظري ولكن محاولتي، كما اتضح، كانت فاشلة. وانا لم أكن من أنصار المبدأ القائل «لتحقّق العدالة وليهلك العالم»، فاذا هلك العالم فأين اذن ستظهر العدالة؟ ان العلم يتحرك بالأحياء من الناس، واذا نحن لم نفكر في هؤلاء الناس فان العلم نفسه قد يتوقف. ولذلك فانه يبدو لي الآن وبعد ثلاثين عاما أننا كنا على حق مع شميدت. وقد أوضح هذا امتداد حياتنا. ولم يكن بدون داع آنذاك أنه في العقد الرابع من هذا القرن ــ عندما

كان يصل الى لينينغراد من طشقند حيث كان قد رحل اليها سنة ١٩٢٠ــ غالبا ما كان يطيب أن أتذكر معه كيف عثرت على مخطوط ترجمة حياة الشعراني وكيف كنت ألسعه باسئلتي. وقد تذكرنا مؤامرتنا الصغيرة عندما وقفت لأول مرة أعارض رسالة علمية، وتذكرنا خيبة أمل بعض زملائنا الذين كانوا ينتظرون أن يروا: أينا سيبدأ بان يقول للآخر اشياء غير طيبة.

على أن قصة المخطوط المكتشف لم تقف عند هذا الحد بل واصلت دورتها. وفي هذه المرة كان من نصيبي بعض من سخرية القدر «لكي لا يصيبني الغرور» ــ وهي العبارة التي فضل أن يقولها أحد العلماء الهرمين من خارج العاصمة. فقد انتهيت من مقالتي عن مخطوط الجامعة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤ وعبرت فيها عن أملي بان تكون النسخة الثانية لهذا المخطوط موجودة في وطن الشعراني في مصر. الا أن هذه النسخة اكتشفت على نحو اسرع جدا وفي مكان أقرب جدا مما كنت أتوقع. فقد اتفق في تلك الأعوام أن كان عندي في الجامعة طالب موهوب تبرز بوضوح شخصيته الخاصة وهو بلغاري ابن حداد واسم عائلته هو من الأسماء الشائعة في بلغاريا وأعني به شيشمانوف. وكان هذا الطالب يتميز بذوق أدبي كبير ودقيق. وكان يعرف مجموعة ضخمة من اللغات، وقد كان في ذلك الوقت شديد الانجذاب نحو محبوبي الشاعر

الفيلسوف أبي العلاء، وترجم ما يقرب من مجموعة كاملة من أشعاره الدرعيات. وقد اعداني بانجذاباته الكثيرة المتعددة وقمنا معا بعد وقت متأخر قليلا بترجمة رواية «ايند يميون» لورنر فون هيدينستام من اللغة السويدية الى الروسية. وقد جرت حوادث هذه الرواية في دمشق. وفي صيف ١٩١٤ رجع هذا الطالب الى وطنه، فأوصيته بأن يبحث في المكتبة العامة في صوفيا عما اذا كانت ثمة أية مخطوطات عربية. وظهر أنه توجد هناك في قسم تحت عنوان «الارشيفات التركية» كل مجموعة «مكتبة تا نا بازفانت أوغلو» وهي شخصية بلغارية تركية مشهورة على تخوم الزمن الحديث. والمادة الأساسية لهذه المجموعة مؤلفة من اقلية من المخطوطات التركية وأغلبية من المخطوطات العربية التي خزن معظمها آنذاك في حالة جيدة. وقد أرسل لي شيشمانوف الفهرس المختصر للمخطوطات التي اعتبرها طريفة جدا. وكانت دهشتي عظيمة عندما وجدت أن من بين مجموعة الفهرس نسخة اخرى لترجمة حياة الشعراني بقلم المليجي. وعلى هذا النحو فان هذا الأثر الذي لم يكن بعد مسجلا في أية مجموعة، وغير المعروف حتى في وطن الشعراني، مصر، قد عثر عليه في مخطوطين جيدين في بلدين سلافيين في وقت واحد. من الصعب أن نفسر جميع هذه المصادفات في تاريخ المخطوطات العربية ولكن من الواضح ان هذه المصادفات ستتكرر بالطبع

فترة أخرى طويلة من الزمن. فعلمنا لم يزل في مهده. وبلغاريا لم تدرس تماما من ناحية المخطوطات، ولعلها تخفي أشياء كثيرة غير متوقعة. أما كنا لا نعرف شيئا حتى هذه اللحظة عن مخطوط «نزهة المشتاق» للادريسي هذا المخطوط الذي يوجد في مكان ما في مدينة شوملا والذي تسرب عنه خبر في أحد المجلات الجغرافية. هذا مع العلم أن المخطوطات القيمة للادريسي في جميع انحاء العالم يمكن أن تعد على أصابع اليد الواحدة. على أنه في مستهل العقد الخامس من هذا القرن عثر فعلا على مخطوط آخر لترجمة حياة الشعراني، بل وفي القاهرة هذه المرة.

٣ ـ من القاهرة حتى مقبرة فولكوفو في بطرسبورغ (١٩١٦ـ١٩٣٠)

منذ اكثر من مائة عام، في ٢٢ آب (أغسطس) ١٨٤٠ ظهرت مقالة غير عادية تماما في جريدة «أخبار سانت بطرسبورغ». وكان «شارع نيفسكي الرئيسي» يلعب دورا خاصا في ذلك الوقت بالنسبة لسكان بطرسبورغ الذين كانوا يتذكرون قصة غوغول المرتبطة باسم هذا الشارع. بدأت المقالة بعبارات رنانة بطريقة رومانتيكية عالية: «تسألني من هو هذا الرجل الوسيم في حلته الشرقية، وعمامته البيضاء، ولحيته السوداء كالقطران، وعيونه الحية

الزاخرة بالنار، ووجهه المعبر الذكي المحترق لا بشمسنا الشمالية الباهتة. لقد قابلته أنت مرتين من قبل، يسير مختالا على الجانب المشمس من شارع نيفسكي الرئيسي، وأنت كعضو دائم في شارع نيفسكي الرئيسي في ذلك الهواء الجميل، سرعان ما تراه، ولا بد أنك تريد أن تعرف من هو». ويبين الكاتب أنه هو الشيخ محمد عياد الطنطاوي الذي رحل من «شاطئ النيل» ليشغل الكرسي الخالي للغة العربية في معهد اللغات الشرقية التابع لوزارة الخارجية. «الآن تستطيعون تماما أن تتعلموا التحدث بالعربية دون أن تسافروا من بطرسبورغ». هكذا انتهت المقالة. وكان كاتبها عندئذ تلميذا شابا للمستعرب سينكوفسكي هو سافيلييف الذي صار فيما بعد عالما معروفا في الآثار والنقود القديمة.

ومع الزمن، وبعد عشرين عاما، عرف قليل من قراء «أخبار سانت بطرسبورغ» ان قبرا جديدا ظهر قرب قرية فولكوفو في المقبرة «التتارية»، عليه شاهدة حسنة مكتوب عليها بالعربية وبالروسية. والنص الروسي يقول: «الاستاذ بجامعة سانت بطرسبورغ والمستشار برتبة عقيد، الشيخ محمد عياد الطنطاوي. مات في ٢٧ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٦١ وله من العمر ٥٠ عاما». هنا انتهى طريق سيرة طويل وغير عادي مبتدئا قبل نصف قرن في قرية صغيرة قريبة من طنطا، هناك في مصر.

فيا لها زهرة نادرة تلك الشخصية التي تلألأت في روسيا القديمة! وها هم المعاصرون يتحدثون عنها – عفو الخاطر – في هالة رومانتيكية. وان النغمة الرومانتيكية ترن في مقالة «أخبار سانت بطرسبورغ»، وفي قصة أحد تلاميذ الشيخ الطنطاوي بأنه عند استعداده للسفر الى روسيا «اشترى جارية من قبيلته وأرسلها الى باريس لتتعلم ثم تزوجها بعد ذلك». واستطاع المعاصرون جيدا أن يعرفوا شكله وهيئته بفضل الصورة الرائعة التي رسمها له في نهاية ١٨٥٣ بيده الفنان المشهور مارتينوف والتي توجد في مجلد صور شخصيات العلم المعاصر. وقد ساعدتنا هذه الصورة على فهم ذلك الانطباع الذي تتحدث عنه مقالة «أخبار سانت بطرسبورغ». ويبدو من هذه الصورة على ثيابه الشرقية وسام القديسة «أنّا» (حنه) وبنعومة ضحك هو نفسه على هذا في بعض أشعاره:

اني رأيت عجيبا في بطرسبورغ وانه
شيخ من المسلمين يضم في الصدر حنه.

على أنه سرعان ما غاب الشيخ الطنطاوي عن عيون اخوانه في وطنه، وحتى في نهاية العقد التاسع للقرن ١٩ لم يعرف الكثيرون منهم ما اذا كان حيا أم ميتا.

ولعل هذه الشخصية الشرقية من أسلافنا ستبقى الى الأبد بالنسبة لنا، نحن المستعربين الروس ايضا، في صورة

رومانتيكية سائحة معتمة لو لم توجد مخطوطاته. فغالبا ما استطاعت المخطوطات أن تعرض المرء بصورة أحسن من معاصريه. فهناك في مكتبة الجامعة عند تلك الخزائن من الخشب الفاتح، شعرت لأول مرة بالطنطاوي الحقيقي. وعرفت ما ملأ حياته في القاهرة وفي بطرسبورغ، وفهمت من الاوراق التي كتبها بيده تلك المأساة الثقيلة التي أصابته في آخر أعوام حياته، ولعل هذه الاوراق هي وحدها التي تعرف أمر هذه المأساة. ولم أدر منذ البداية كيف جذبتني غريزيا هذه الشخصية الفريدة في تاريخ مجالنا العلمي. وسرعان ما عجزت عن أن أعزل فكري عن هذه الشخصية. وما كانت التنقيبات والبحث المتواصل لتضيفا عادة الا قطعا لتطعيم هذه الفسيفساء. لكن الاكتشافات السعيدة والمصادفات غير المتوقعة غالبا ما كانت تضيء بنور كشاف ساطع امتداد الطريق الى الامام والطريق المسلوك. وغالبا ما حملت على تذكر المثل القائل: «الصياد الحقيقي يتوجه اليه الوحش بنفسه». وقد سار هذا العمل كما هو دائما الى جانب أعمال أخرى. واقتضى الامر خمسة عشر عاما من العمل حتى تجاسرت على تاليف كتاب صغير اضمنه خلاصة معلومات هذه السنين التي استطعت أن أعرفها عن الشيخ الطنطاوي: ان القصة قد تحكى بسرعة، اما تاليفها فعمل طويل.

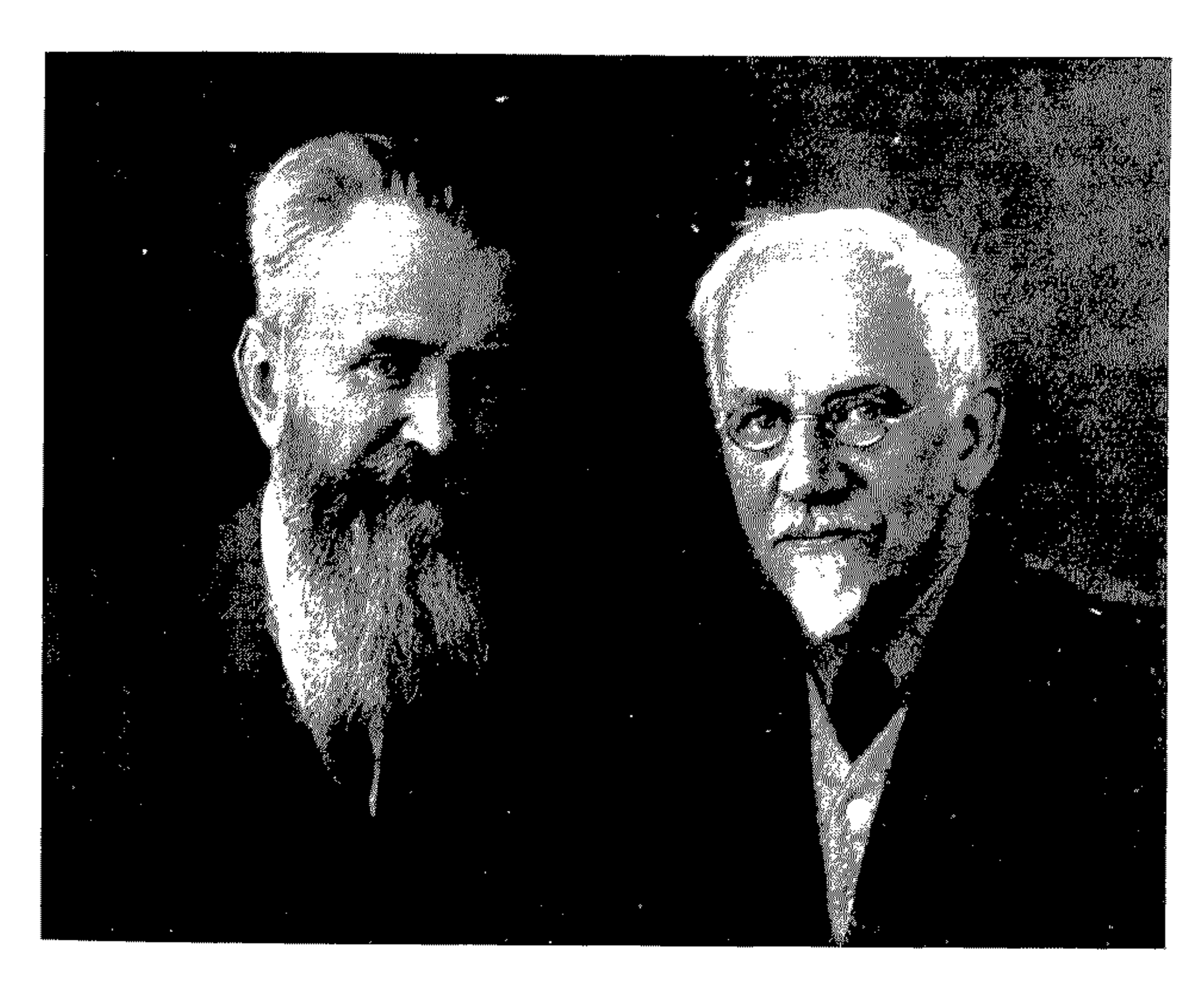
في عام ١٩١٩ احتفل بالذكرى السنوية المئوية لجامعة سانت بطرسبورغ. وكان قد بدئ في الاستعداد لهذا الاحتفال مبكرا، قبل الثورة. وفي ١٩١٦ كانت قد راودت الجامعة فكرة عن كتابة تاريخ الكراسي المختلفة فيها. وقد انفتحت لنا، نحن المستعربين، صورة عجيبة مشوقة. فأول أستاذ كان الفرنسي ديمانج (١٨١٩ـ١٨٢٢). والثاني هو البولوني سنكوفسكي (١٨٢٢ـ١٨٤٧) المعروف بلقب البارون برامبيوس. والثالث كان عربيا هو شيخنا الطنطاوي (١٨٤٧ـ١٨٦١). واذا كان لم يذكر عن الأستاذ الأول أي شيء بسبب أنه لم يترك أي أثر في مجال العلم عدا أنه ينسب اليه على غير أساس مأثرة تعليم الكاتب الروسي الكبير والديبلوماسي المعروف غريبويدوف اللغة الفارسية، واذا كانت توجد كتب كثيرة عن الاستاذ الثاني، صحيح بوصفه كاتبا لا بوصفه مستعربا، فقد وجدت، فيما يتعلق بالشيخ الطنطاوي، ان المواد المطبوعة تنطوي على بعض الأخطاء الناتجة عن سوء الفهم كما وجدت ببساطة غياب بعض المعلومات الهامة عنه.

فكان لا بد من بناء هذا كله من جديد. فتوجهت نحو الدرب المختبر، نحو المخطوطات.

كان معروفا لديّ أن الشيخ الطنطاوي جمع بنفسه مجموعة من المخطوطات تقارب المائة والخمسين مجلدا آلت كلها الى مكتبة الجامعة. وكنت اعرف ان بينها آثارا



القسم العربي في المعهد الشرقي بلينينغراد. عام ١٩٢٨. الجالسون في الوسط قرب الطاولة: ابنة الناصرة ك. ف. عودة ــ فاسيلييفا (المعلمة كلثوم عودة)، البروفسور كراتشكوفسكي، د. ف. سيميونوف (الاستاذ سابقا في مدرسة الجميعة الفلسطينية ــ توفي في لينينغراد سنة ١٩٤٢).



الاكاديمي كرانشكوفسكي والعضو المراسل لاكاديمية العلوم السوفييتية البروفسور
ا. ا. شميدت. لينينغراد ١٩٣٨.



الشيخ محمد عياد الطنطاوي (١٢٢٥-١٢٧٨ هـ ١٨١٠-١٨٦١ م).



رخامة على ضريح الشيخ محمد عياد الطنطاوي في مقبرة فولكوفو
الاسلامية في لينينغراده

أدبية ممتعة ليست بالقليلة، وأن جزءا منها دخل نطاق الاستخدام العلمي، لكن ليس هذا ما كان يهمني اذ ذاك. فان ما كنت في حاجة اليه هو استيضاح ما اذا كانت المجموعة الأخرى من مخطوطات الطنطاوي تنطوي على اية مواد عن تاريخ حياته أو ملامح نشاطاته العلمية والأدبية. فلم يخب املي: ففي أوائل هذه المخطوطات عثرت على مؤلفات، لم يرها أحد، بقلم الشيخ الطنطاوي نفسه ومخطوطات لمؤلفين آخرين كان قد نسخها منذ شبابه. وعثرت على مخطوطات فيها ملاحظات واضافات وتعليقات له. وقررت أن أنظر وأفحص في بطء المائة والخمسين مجلدا جميعا صفحة صفحة. وقد زاد هذا العدد عندما وجدت ان بعض مخطوطات مجموعة الجامعة، التي وصلت الى المكتبة قبل الطنطاوي، تتضمن أيضا ملاحظاته. كان العمل فسيفسائيا حقا يتطلب الدقة والتمهل. ولكن هذا العمل وحده استطاع أن يعطي قاعدة ثابتة وأن يمنح بسخاء في مقابل المجهود الصعب الطويل، لا رضى النفس فحسب بل ونتائج حقيقية. ورويدا رويدا وخطوة خطوة ارتسم امامي بالتدريج كل المجال العلمي والتعليمي لمعاصري الطنطاوي. وبرزت أمامي اهتماماته الشخصية البعيدة عن نطاق هذا المجال، ومحاولاته الأولية الوجلة في جمع مواد تجيب على استفسارات أصدقائه وطلبته الأوروبيين. وقد ساعدت

ملاحظاته وتعليقاته على صفحات المخطوطات في ايضاح المراحل المتتالية من حياته. فأول جزء من مخطوطاته اشتراه عندما كان طالبا ثم معلما في الأزهر. والجزء الثاني يتضح من ملاحظاته عليه أنه قضى معه وقت فراغه غير الاختياري في الحجر الصحي الطويل في ازمير أو استانبول، وقت رحلته الى روسيا. وواضح من ملاحظات الجزء الثالث أنه يطير بافكاره الى وطنه من غربته البعيدة حيث أنهى حياته. وبالتدريج وضحت القاعدة الزمنية لتاريخ حياته وابتدأت صورته الرومانتيكية الغائمة تزخر بألوان حياته الناصعة.

وكان العصر الجديد لكل عملي هو عام ١٩٢٤. فقد بدأ مواطنو الطنطاوي يتذكرونه عندما تيقظ اهتمامهم نحو الفترة القديمة من حياتهم. وبدأت تظهر منذ ذلك الوقت (١٩٢٤) اشارات عنه في أخبار المجمع العلمي العربي بدمشق وفي مجلات القاهرة. ووجدت أن وطن الطنطاوي لا يملك اطلاقا ما املكه من المواد التي جمعتها. وبسعادة أسهمت بنصيبي في الصحافة العربية للعمل على احياء نموذج انساني لا تقل قرابته لنا عن قرابته للعرب. وهنا ربطني القدر من جديد مع أحمد تيمور باشا العالم والمحب للكتب. وكان أفقه العلمي واسعا. فلقد استطاع أن يفهم جيدا أيضا الشاعر الفيلسوف الأعمى في القرن الحادي عشر أبا العلاء الذي انجذبنا اليه معا. وبنفس

هذا الفهم كان تيمور باشا يعرف احد مواطني بلده في القرن التاسع عشر الذي عاش ومات بين الروس هنا في الشمال. وقد قدر تيمور جهودي، وبعد موته، عرفت من ابنه أن صورة الطنطاوي التي أرسلتها له كانت دائما على منضدته. وابتدأت أوروبا ايضا تهتم بالأستاذ البطرسبورغي الطريف. وفي هذا العام ١٩٢٤ نفسه كتب اليّ محرر الطبعة العالمية المشهورة لدائرة المعارف الاسلامية التي تجدد صدورها بعد الحرب العالمية الأولى، كتب اليّ يسألني أن أرسل له مقالة عن الطنطاوي. واجمالا لعمل استمر قرابة عشر سنوات، شعرت شعورا جليا بنداء داخلي يهيب بي باصرار ان عليّ أن أؤلف كتابا عن الطنطاوي. وكما لو كان الامر مكافاة على هذا القرار، حمل اليّ عام ١٩٢٤ اكتشافا مفرحا.

فعندما كنت أنظر عددا من احدى المجلات الاستشراقية خرج لتوه من المطبعة، عثرت فيه على فهرس دوري للمخطوطات العربية في مكتبات استانبول. وهذه الفهارس لمخطوطات استانبول كان ينشرها من وقت لآخر واحد من العلماء الألمان، هو مستشرق فاشل لم يكن له مكان في المانيا فألقى مراسيه في استانبول على وظيفة معلم متواضع في مدرسة ثانوية. وبحماسه وعناده الكبير استطاع أن يجد وقتا ليغوص في بحر كنوز المخطوطات. ومن هناك جذبت جواهر كثيرة. ورايت في

الفهرس فجأة أنه قد ذكر مع الآثار القديمة في جامع رضا باشا بروميلي حصار عنوانا حملني على أن أنسى كل ما خلاه. والعنوان يقول: «تحفة اولي الالباب في أخبار بلاد روسيا للشيخ محمد عياد الطنطاوي كتبه بخطه سنة ١٨٥٠ م/١٢٦٦ هـ وأهداه الى السلطان عبد المجيد».
ولم يكن لدي أية معلومات عن هذا المؤلف في موادي العلمية ولم يكن تصوري لماهية هذا المخطوط الا من قبيل التخمين. وكان أسرع ما ورد على خاطري هو أنه وصف جغرافي عادي. ولم أصدق تماما أن المخطوط هو بخط الطنطاوي فعلا. وخشيت أن يكون ثمة شيء من سوء الفهم. لكن اسم الطنطاوي مذكور في العنوان. ولم أعرف الهدوء ولا الراحة وكان علي أن انتظر مدة طويلة. وأخيرا في ١٩٢٧ سمحت لي العلاقات الدولية آنذاك أن أتسلم نسخة من المخطوط. وكان الحكم الذي خرجت به بناء على الخط الذي كتب به هو أن المخطوط منقول أو منسوخ بواسطة تركي لا يحسن معرفة اللغة العربية ولم يكن ناجحا دائما في فهم الأصل وبخاصة فيما يتعلق بالأسماء الروسية الصعبة أو المعقدة. لكن لم يبق أي شك في أن المخطوط يرجع الى الشيخ الطنطاوي. وأخذت عيني تتنقلا بانفعال على الصفحات ولم أستطع أن أفارقها شاعرا فورا بأن هذا المخطوط هو أحسن مؤلفات الشيخ الطنطاوي، الى جانب أنه قريب جدا لأنفسنا نحن

الروسيين. فهو يعكس بروعة طبيعة الطنطاوي المتطلعة واستجابته لكل مظاهر حياتنا كما يعكس نظراته الدقيقة ومزاجه اللطيف الخير. ولم يكن المخطوط اذن وصفا جغرافيا عاديا كما تخيلته من العنوان، وبمعنى أدق فان المخطوط لم يكن فقط وصفا حغرافيا. ففي هذا المخطوط وصف الشيخ الطنطاوي بالتفصيل رحلته من القاهرة الى بطرسبورغ متذكرا كذلك رحلته الى وطنه سنة ١٨٤٤. وتحدث بالتفصيل أيضا عن انطباعاته عن روسيا والروسيين مدة العشرة الأعوام الأولى من اقامته في روسيا. وتحدث عن أسفاره في العطلات الى بلاد بحر البلطيق وفنلنده. وقد شرح لأهل وطنه بالتفصيل تاريخ روسيا في العصر الحديث ورسم خريطة لمدينة بطرسبورغ في عصره. كل هذا باشارات حية ناصعة هي الآن بالنسبة لنا لا تقدر بثمن كما في السابق. ولقد أسعدني أن مخطوطا آخر للطنطاوي أصبح معروفا للعلم ولأهل عشيرته. على أنني ما ان انتهيت من الدراسة الجيدة لنسخة مخطوط استانبول حتى وهبني القدر مفاجأة أخرى مفرحة.

ففي بداية خريف ١٩٢٨ دخل عليّ ذات مرة تلميذي الموهوب الناشىء المتخصص في الدراسات السامية الذي انطفأ سراجه مبكرا اذ حملته معها سنة ١٩٤٢ القاسية. وكان دائما هادئا ثابت الطباع وغالبا ما كان

يزورني حاملا مختلف الأسئلة العلمية. لكن في هذه المرة شعرت فورا أنه لم يأت من أجل مسألة بسيطة. ووجدته يمد يده اليّ في هدوء عادي بمخطوط غلافه من الورق المقوى العادي ثم قال موضحا: «هاك، وجدت هذا عند بائع كتب قديمة في شارع ليتيني ويبدوأنه يتعلق بالجغرافيا. فقد تجدون فيه شيئا ممتعا لكم». وما فتحت المخطوط حتى ذهلت. فلقد رأيت أمامي خط الطنطاوي في نهاية العقد الخامس من القرن التاسع عشر وهو الخط المعروف لدي جيدا. ونظرت بانفعال في الصفحة الأخيرة منه فذهلت مرة أخرى: ان ما في يدي هو ذلك المخطوط الذي كتبه الطنطاوي بنفسه عن «وصف الروسيا» وهذا المخطوط الذي في يدي هو المسودة وبه تصحيحات واضافات كثيرة جدا بخط المؤلف نفسه. وبالطبع فان صديقي الشاب عرف جيدا أي كنز ثمين حمله الي، لكنه لم يرد أن يحرم نفسه من الاستمتاع برؤية كيفية استجابتي الى هذا المخطوط. وعندما تطلعت الى الغلاف فهمت للتو كيف وقع المخطوط عند ذلك البائع للكتب القديمة.فعلى الغلاف مطبوع بالحروف اللاتينية «I. N.» «ا. ن.» وهو اختصار اسم ايريني نوفل، وهو عربي من طرابلس كان خليفة الطنطاوي في التدريس بالقسم التعليمي للغات الشرقية التابع لوزارة الخارجية. وفي بداية القرن العشرين ذهبت مكتبة نوفل أدراج الرياح بفضل أبنائه

الطائشين. وغالبا ما كان حطام هذه المكتبة ـ المأسوف عليها ـ يطفو في اوقات مختلفة على سطح بحر الكتب في بطرسبورغ ولينينغراد.

ان هذين المخطوطين المكتشفين ـ أحسن مؤلفات الطنطاوي ـ ليعطيان الآن امكانية كاملة لنشره وترجمته بطريقة جيدة. لكن هنا بدا القدر قاسيا، فكلا تلميذي اللذان أخذا على عاتقهما هذا العمل أحدهما بعد الآخر ماتا مبكرين قبل أن يصل العمل الى نهايته. وما يعرفه العرب والروس حتى الآن عن مخطوط «وصف الروسيا» هو فقط من مقالات صغيرة ومن الملخص العربي.

واذا كانت نهاية حياة الطنطاوي قد اتضحت لي في ختام دراستي له فقد تم ذلك أيضا بفضل المخطوطات. فلقد عرفت من وثائق رسمية أنه من ايلول (سبتمبر) ١٨٥٥ ـ «عانى من شلل أصاب أطرافه السفلية» حسب تعبير اللغة الطبية الرسمية. أما ماذا عمل هو في السنوات الخمس أو الست الأخيرة من حياته فقد كان من الصعب عليّ تصوره.

وهنا ساعدتني المصادفة من جديد. فقد كان وما يزال في كل مكتبة كبيرة، قديما وحديثا، عاملون غير ظاهرين، كأنما فقدوا تماما معالمهم الشخصية، وانصهروا مع المكتبة، ومع تلك الأعمال التي تنشأ فيها. هم انفسهم ليسوا مبدعين او خلاقين بل ومن النادر أن يشغلوا

بموضوعات علمية خاصة بهم. لكنهم يعيشون في اهتمامات الآخرين كوحدة عضوية معها. وهم جد ضروريين للعلماء. فبدونهم لا يمكن أحيانا أن تتم بعض الموضوعات او تكتمل دراستها بطريقة حسنة. كان أحد هؤلاء العاملين شابا ولكنه عديم الأمل بسبب تشبعه بروح المكتبة. وهناك على المنضدة لدى خزائن المخطوطات حيث كنت انجز دراستي عن الشيخ الطنطاوي، حمل اليّ هذا العامل كوما من الأوراق الكبيرة المكتوبة التي ترجع الى منتصف القرن التاسع عشر. وهذه الأوراق مملوءة تماما بسطور عربية وروسية متداخلة مع بعضها. ولم تكن هذه الأوراق مسجلة في أي سجل. وكانت ملقاة في أسفل خزانة من خزائن المكتبة حيث اكتشفها هذا المستخدم ذو الروح الخيرة نحوي، والذي شعر بالغريزة أن لهذه الأوراق علاقة ما بشيخي الطنطاوي.

لم أستطع في البداية فهم أي شيء. فكوم الأوراق تتضمن ما لا يقل عن مائة وخمسين ورقة ممتلئة بخطوط كتلك الخطوط التي يحب أن يرسمها الأطفال أحيانا على مساحة بيضاء خالية او كخط مكسر غير واضح لشخص راشد يحاول أن يتعلم الكتابة. وبعد أنَ قمت بترتيب الأوراق حسب شكلها الخارجي وحسب أرقام الصفحات التي وجدت على بعضها، بدأت أفهم حقيقة الأمر. وعلى الفور أصبح هذا الأمر شيئا مرعبا. فقد بدا ان الأوراق تتضمن

جميع الموضوعات القريبة من الطنطاوي. وهي تتضمن مجموعة أمثال باللهجة المصرية ونماذج من التحايا والأغاني العامية ومواد مختلفة عن البلاغة والنحو والألفاظ العربية. لكن كان من الواضح ان كل هذا كان مكتوبا بعد أن اخذ «شلل رجليه» ينتشر الى يديه. وكان من المؤلم للمرء ان يرى كيف أن صاحب هذه اليد كان بالتدريج يتزايد صراعه في حربه مع الكتابة. فلم يطاوعه لا القلم ولا الريشة. وكانا يخرقان الورقة عند كل حركة في أثناء الكتابة. وكانت يده تحاول أن تحسن كتابة الحرف العربي او الروسي وفجأة تنقبض يده مرتشعة فيجري منه القلم على ما يقرب من كل الصفحة. كانت المادة كلها حقا حية وممتعة. ولكن اذا كنت قد فهمت الصفحات الأولى بصعوبة فان فهم ما بعد ذلك أخذ يتزايد سوءا. فأحيانا كانت الحروف تلتحم معا في صورة خط اختزالي او ما يذكر بكتابة الأعمى الذي سلمت له في يده عصا يغمسها في لون للصباغة ليكتب بها. وهكذا استمر الأمر على عشرات الأوراق. وهذه السطور توضح ببلاغة وبفظاعة ايضا كيف ان الطنطاوي كان يحاول باصرار أن يمسك بالسراب لأداء عمل عقلي لم تمكنه منه يده الهامدة وهو الرجل ذو الطبيعة الحية التي لا تعرف التقهقر او الاستسلام. ولو أنه وجد موضوع لرواية عن الطنطاوي في قصص المعاصرين فان هذه الأوراق تتحدث عن مأساة قاسية لانطفاء حياته. وفي

آخر فصول هذه المأساة ينسدل الستار على موت البطل محترقا بنار شريرة من التسمم الدموي. وهكذا فتحت المخطوطات لي كل فصول مأساة تلك الحياة التي بدأت في قرية مصرية صغيرة، وتفتحت في المراكز العلمية العربية في طنطا والقاهرة، ثم عبرت الى عاصمة روسيا سانت بطرسبورغ وانتهت في قبر ذي شاهدة، هناك في مقبرة فولكوفو.

وخرج كتابي عن الشيخ الطنطاوي في بداية ١٩٣٠. ولم يعجب الكتاب الجميع لسبب ما ولكن افرحني ان المستعربين والعرب، وبخاصة أهل وطن الشيخ، قد قدروه وتحدثوا عنه بكلمات حارة. وقد قاسيت كثيرا عندما كنت اؤلف هذا الكتاب. وحتى هذه اللحظة عندما أسأل عن أعمالي التي أعتبرها أثرا جديرا في العلم فانني أشير دائما الى أربعة كتب أولها عن شاعر دمشق المرح الذي كان مناديا في سوق الفواكه. وثانيها هو عن أهجية دقيقة للحكيم الأعمى الشاعر والفيلسوف السوري. وثالثها عن نظرية الألفاظ الشعرية الذي ألفه أمير وشاعر وعالم لغوي رقيق كان لسوء حظه خليفة بغداد لمدة يوم واحد. وآخرها هو عن الشيخ المصري الاستاذ في بطرسبورغ. لكن يبدو لي أحيانا أنني أحب بالذات الكتاب الأخير وأفضله على الجميع. وغالبا ما كنت أفتحه لأتطلع الى صورة ذلك الشخص الذي يدور حوله الحديث في الكتاب.

٤ ـ الأندلس ولينينغراد

(١٩٠٥ـ١٩٤٢)

ان المستعرب الناشئ الذي يريد أن يقتحم غمار العلم حقا، يقف أمامه طريق معقد متعرج أحيانا. فلا بد لهذا المستعرب، قبل كل شيء، أن يسيطر على أدوات ووسائل مختلفة للعمل ولعل في الصف الأول منها التملك للغات الأوروبية. ومع تقدم العلم يتزايد عدد اللغات اللازمة له. فقد انتهت الى الأبد تلك الفترة من القرن الثامن عشر التي كان يستطيع فيها العالم أن يحد نفسه في نطاق اللغة اللاتينية. والآن وفي الخطوات الأولى فان هذا المستعرب الناشئ يدرك أنه لا بد له، لأجل الاستفادة من المراجع الأساسية الضرورية، ليس فقط ان يكون متملكا للغات ثلاث، هي الانجليزية والفرنسية والالمانية بل لا بد من ان تضاف اليها لغة رابعة هي الايطالية. فالدراسات الاستعرابية باللغة الايطالية صارت في الصف الأول من العلم العالمي منذ النصف الثاني من القرن ١٩. وعلاقة أسبانيا مع العالم العربي واضحة لهذا المستعرب من التاريخ المدرسي للقرون الوسطى. لكنه يعرف حاليا أن المجموعة المتماسكة للمستعربين الأسبان خلقت مدرسة جدية منذ نهاية القرن التاسع عشر، وأن كثيرا من المسائل لا يمكن استيضاحها بدون الرجوع الى أعمالهم. وعندما يقرر هذا المستعرب

الناشىء أن يتعمق في مجال الدراسات الاسلامية الخاصة فانه سرعان ما يسمع أن أحسن محاضرات في الفقه الاسلامي مطبوع باللغة الهولندية، وكذلك في كثير من الأعمال العلمية الأساسية عن التاريخ الداخلي للاسلام. وان المدرستين الاصيلتين الممتعتين اللتين خلقهما المستعربون من السويد والدانمارك تحملانه على أن يتعرف الى اللغات الاسكندينافية. وعليه أن يعتبرها مصادفة سعيدة له ان المستشرق المجري الكبير من الجيل السابق والمتخصص في الدراسات الاسلامية، طبعت أكثر أعماله بالالمانية. والعلماء الفنلنديون يستعملون كثيرا اللغة السويدية ولغات أخرى أكثر سهولة. لكن هذا لا يكفي. فمن المخجل للمستعرب الروسي ألا يعرف الدراسات التي في اختصاصه والتي كتبت باللغات السلافية: فعليه قبل كل شيء أن يتعرف بالتراث التشيكي في كثير من العصور وأن يتعرف على العلم البولندي الجديد الذي تمكن بقوة من تطوير علمه الاستشراقي بعد الحرب العالمية الأولى في سلاسل الكتب وبعض المطبوعات الدورية. ويجب عليه أن يعرف أنه توجد باللغة الصربية كتب كثيرة تتعلق بدخول الكتابة العربية الى البوسنة والهرسك، بل وأنه خلال عشرات الأعوام الأخيرة صدرت أعمال علمية كثيرة تتناول مسائل عامة في الاستعراب. ومن المفيد له أحيانا أن يعرف اللغة البلغارية، بل واللغة الأوكرانية ليجد صورة حية عن العالم الاسلامي المعاصر ترجع الى متخصص اوكراني

كبير*. ويجد أيضا بهذه اللغة ما لعله أحسن ما كتب في الأدب الفني وأعني بهذا «قصص بيروتية» و«أغاني لبنان». وهكذا تتسع قائمة اللغات الضرورية له اكثر فاكثر. ولو أن هذه القائمة فتحت كلها دفعة واحدة فقد تبدو شيئا مخيفا مرعبا، ولكن الانسان في تدرج حركة حياته يسيطر عليها دون أن يشعر بها هو نفسه.

وانه لمفهوم للمستعرب ذلك الخوف الذي تظاهر به المستشرق الهولندي المشهور سنوك هيورغرونيه ـ الذي سبق له أن زار مكة في صورة خفية سرية ـ عندما كتب الى روزن في نهاية العقد العاشر من القرن الماضي من مدينة باتافيا في جزيرة جاوة يشكره بتهكم على ارساله المجلد الدوري ل«دراسات الشعبة الشرقية للمجمع الروسي للآثار القديمة» التي كانت تخرج دائما في طبعة روسية فقط. وقال انه يترتب عن قريب على المستشرق الناشئ الذي يريد كتابة رسالة للماجيستر أن يتعلم ٢٤ لغة قبل أن يتعمق في اختصاصه تلك اللغات التي طبعت بها دراسات تتعلق باختصاصه؛ ولن تكون الروسية او الهولندية فحسب من بين هذه اللغات، بل وحتى لغة الملايو وأهل جاوة. ولحسن الحظ أنه ظهر أن كل هذا ليس في الحقيقة شيئا مرعبا الى هذا الحد وأن وزن مختلف اللغات ليس متكافئا في مجال الاستعراب، وليست الحاجة الى كل هذه

* هو أ. كريمسكي، مستعرب ومستشرق فارسي وتركي.

اللغات في درجة متساوية بالنسبة لبعض الموضوعات الخاصة القائمة بذاتها.

على أنه يكاد لا يوجد أي مستعرب ايا كان عمله المباشر لم ينجذب بقوة الى جرس كلمة «الأندلس» بالذات. وهو الاسم الذي أطلقه العرب على اسبانيا. ولا يوجد ذلك المستعرب الذي لم يتعرف دراسات دوزي الكلاسيكية المفعمة بالرومانتيكية عن مسلمي الأندلس؛ ومع أن هذه الدراسات قد ولى زمنها بعض الشيء فان جمال فنها لم يذبل ولم يتغير رنين نغمها الذي كان يناسب اسلوب منتصف القرن التاسع عشر. وان أي مستعرب في أية فترة من نموه العلمي ليشعر بنفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (كما تسمى مجموعة أشعار مشهورة من القرن السابع عشر عن اسبانيا العربية). وان أي مستعرب ليطير عفويا الى ما وراء جبال البيرينه لا بأفكاره فحسب بل وبشعوره أيضا. وليس من قبيل المصادفة أن روزن عند اعداده لكتاب القراءة ــ الذي لم تقتصر شهرته علينا ــ خصص جزءا منه للشعر العربي الأسباني ولم يستطع أن يقاوم رغبته في نظم بعض الأبيات على وزن أشعار في الرثاء موجودة في الكتاب كان قد ألفها شاعر وفارس عربي قديم في الاندلس.

الا أن الطريق من أسبانيا العربية الى المستعربين الأسبان طويلة متعرجة أحيانا. ولا مدعاة للعجب من أن جهود الاستعراب الأسباني ظلت في كثرة من الاحوال بالنسبة

للعلم الأوروبي محجوبة عن نظره حتى الأزمان الأخيرة. وبهذا الخصوص كان حظي سعيدا. فقد سرني أن امتداد «الخط الأندلسي» لاهتماماتي العلمية لم ينقطع مدة تقرب من أربعين عاما. وعن طريق الكتب والمخطوطات نفسها تعرفت على المستعربين الأسبان، ومنذ وقت مبكر أضيفت الى هذه الكتب والمخطوطات مخطوطات أخرى هامة معاصرة وأعني بها الخطابات والمراسلات التي انتعشت بالتدريج بصور أصحابها. ولكن الاقدار شاءت الا أرى شخصيا أحدا منهم. وقادني الطريق الى الهدف ببطء.

عاش الاستعراب الأسباني مدة طويلة في ضوء كوكب نحس: ذلك أن حكم دوزي على بعض ممثليه في النصف الأول من القرن التاسع عشر كان حكما قاسيا وان يكن عادلا. وقد امتد هذا الحكم بقوة سمعة دوزي لينتشر بصورة مشؤومة على جميع الأعمال الجديدة باللغة الأسبانية. وكف الجميع عن قراءتها، الا انه قد وجدت لحسن الحظ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر جهود صحيحة لجيلين من المستعربين المتحمسين عملوا باصرار وتسلسل دون خوف من العناء ودون أي اعتراف بهم تقريبا في وطنهم ودون أن يحس بهم باقي أوروبا. وفي بداية القرن العشرين تغيرت الصورة تماما وان ظلت الجهود الاسبانية محجوبة عن الاستعراب في البلاد الأخرى وحملتني المصادفة على أن افكر في هذا.

ففي عام ١٩٠٦ عندما كنت استعد لطبع أول استعراض للكتب الاستعرابية الجديدة التي تتعلق ببعض المسائل الخاصة، التقيت في مكتبة الجامعة مصادفة بمجموعة تذكارية كبيرة كانت قد طبعت قبل عامين تكريما لفرانسيسكو كوديرا. وكانت المجموعة لا تتضمن سوى مقالة واحدة ضرورية لذلك الاستعراض الذي كان مهما ليآنذاك، لكنني دهشت بالمجلد الرائع المطبوع فيما يقرب من ٧٠٠ صفحة. وكان مجرد ظهوره شرفا لا للمدينة الاسبانية الاقليمية سرقسطة فحسب بل ولكل مركز استشراقي في أوروبا. وان عدد المشتركين الاسبان في هذه المجموعة التذكارية والذين كتبوا عن موضوعات استعرابية ليشير وحده الى جدية تلك المدرسة التي تكونت، وكان اول ما اوحت اليّ قائمة أعمال المحتفى به وصورته في المجلد شعورا بمثابرة هذا العامل العنيد، الذي استطاع أن يجمع في وئام، بين كونه مؤرخا ومتخصصا في النقود القديمة، وبين كونه مهندسا زراعيا، وبين تأسيسه لمطبعة عربية صغيرة في مكتبه حيث كان عمال جمع الحروف هو نفسه مع تلاميذه المستعربين الذين علمهم. ولكن ظهر أن هذا الانطباع الذي اوحاه هذا المجلد كان انطباعا عابرا. ولعل هذا المجلد لم يكن ليبقي أثرا ملحوظا في نفسي لو لم تسانده تأثيرات أخرى آتية من جانب آخر.

وكان الاستعراض الذي كنت أقوم به يجب أن يمر عبر يدي روزن. فألقى لفوره نظرة حادة على مقالة من المجلد الصادر تكريما لكوديرا، وبحيويته المعهودة وبتعجب سألني وكأنه منذهل: «من أين عرفتم هذا المجلد؟» وكان يجب علي أن أعترف بأنني لقيته مصادفة في مكتبة الجامعة. «هذا عظيم... ولعلكم أيضا تتعلمون اللغة الاسبانية بالمصادفة في وقت ما! وانه لمن التوافق أن عالمنا المتخصص في الدراسات الاسبانية يتعلم الآن عندي القواعد العربية». ودار الحديث عن د. ك. بتروف المتخصص في الدراسات الرومانية ذي الشهرة الكبيرة في ذلك الوقت، الذي لم يخش أن يدخل في تعلم اللغة العربية مباشرة. ومنذ تلك اللحظة، كان روزن بحيويته المعروفة عنه، يقاسمني الأفكار عن حركة عمل تلميذه الجديد، وعرفت من روزن لأول مرة كتاب القراءة لليرتشوندي وسيمونيت الذي لا غنى عنه لأي مستعرب اسباني. وفي صيف عام ١٩٠٧ سافر د. ك. بتروف الى الاستاذ زايبولد في مدينة تيوبينغين، الذي كان المستعرب الوحيد في ألمانيا العارف عن كثب بالمسائل الاسبانية. وكان في وقت ما امينا لدون بيدرو البرازيلي وقد قاما معا بترجمة «ألف ليلة وليلة» الى اللغة البرتغالية. على أن روزن لم يستلطف تماما كون زايبولد قد حمل بنفوذه بتروف على أن يقوم بنشر «طوق الحمامة» وهو كتاب مشهور عن «العشق والعشاق» للاديب

العربي الاسباني ابن حزم من القرن الحادي عشر، واعتبر روزن أن القيام بمثل هذا العمل على أساس مخطوط ليدن الوحيد هو عمل شديد الصعوبة على مستعرب ناشئ.

وفي ١٩٠٨ مات روزن. ورحلت الى الشرق. وهناك أيضا توالت عليّ الانطباعات الاسبانية من جانب جديد. في ذلك الوقت عرفت لأول مرة ان في البرازيل وفي أمريكا الجنوبية عامة جالية عربية ضخمة جدا وأن كثيرا من العرب المقيمين هناك ظهروا كشعراء وغالبا ما يكتبون باللغة الاسبانية او البرتغالية. وقد حدث أن التقيت بكثير من اللبنانيين الذين كانوا هناك والذين يسيطرون بطلاقة تامة على هذه اللغة او تلك. كل هذا جذبني ايضا الى الأندلس. وفي النهاية أعطت عودتي الى روسيا شكلا واضحا لهذه الرغبات الغامضة. وكان بتروف المتخصص في الدراسات الاسبانية يواصل اعداد نشر طبعته تلك عن ابن حزم. وبعد قليل وصلت كراريس تجارب الطبع. وباهتمام أسهمت بدوري في هذا العمل. وكانت تحت ايدينا صور فوتوغرافية لمخطوط ليدن الفريد؛ وخلال تطلعي الى سطوره باهتمام، دخلت تدريجيا حياة الاندلس وأذواقها الأدبية، بصورة أعمق مما استطعت أن أحصل عليه من صفحات مؤلفات دوزي بفنيتها المجلوبة وبما يكسوها من الضباب الرقيق لرومانتيكية القرن التاسع عشر. وأخذت أسيطر على «وسائل العمل» شيئا فشيئا. وبصورة طبيعية تطور نظام التبادل

التعليمي بيني وبين بتروف. فقد بدأ يحضر لسماع دروسي الخاصة عن الشعر العربي حيث غالبا ما كان يشكل نصف المستمعين في حجرة التدريس. وبالنسبة لنا نحن المستعربين فان قلة عدد المستمعين لم تكن شيئا غريبا. ودرسنا بحرارة شديدة المنتخبات الشعرية المشهورة «ديوان الحماسة» لأبي تمام من القرن التاسع، ودرسنا بتأثر «المراثي» العربية القديمة. وحاولت ألا تفوتني محاضرات بتروف التي تتصل بأسبانيا، ومع بعض المتخصصين الناشئين في الدراسات الرومانية دخلت اللغة الاسبانية القديمة دارسا «التاريخ العام» ـ وهو تاريخ العالم اجمع لألفونس العالم، المشهور بصفة خاصة في تاريخ الثقافة العربية الاسبانية ـ او غارقا في دراسة المراجع العربية والاسبانية التي تتعلق بتاريخ الفتح العربي لاسبانيا والذي تحدث عنه بتروف في دروسه. وهنا، وفي نهاية نصف السنة الدراسية كانت قاعة المحاضرة تتشكل ايضا من شخصين وكان الثاني رفيقي الأصغر الذي كتب في ذلك الوقت رسالة ماجيستر عن تاريخ الشرق، والذي صار فيما بعد أحد منظمي الاستشراق البولوني بعد الحرب العالمية الأولى، وقد مات في أعوام الشباب، وكان أستاذا بجامعة لفوف. ورويدا رويدا اتسعت دائرة «التبادل التعليمي» فقد أخذ يأتي الى دروسي الأولية في اللغة العربية مستمعون نشيطون من المتخصصين الناشئين في الدراسات الرومانية من تلاميذ بتروف. وكنت

أحضر بانتظام دروس اللغة البرتغالية التي كان يقوم بتدريسها في الجامعة أحد هؤلاء التلاميذ. وتفتحت آنذاك أمام عيني ولأول مرة الموهبة الاصيلة لعيسى دي كيروش. وقد جعلتني بعض أعماله أطير بفكري الى الشرق العربي بمثل قصص ا. ايركولانو التاريخية التي صورت عصر ازدهار الثقافة العربية في اسبانيا. وهكذا ارتبط الأدب العربي القديم في دروسي، كوحدة عضوية مع الأدب المعاصر الاسباني والبرتغالي كليهما. وكلا الاتجاهين ساعد كل منهما الآخر واوضحا أشياء كثيرة كانت ستبقى محجوبة لو سرت في اتجاه دون الآخر.

وفي عام ١٩١٩ عندما أنشئت دار طبع ونشر «الأدب العالمي» التي أسسها مكسيم غوركي، والتي لعبت دورا ثقافيا كبيرا، شعرنا نحن «الشرقيين» بتلك الصلة التي لا تنقطع بين الشرق والغرب، شعرنا بها حية تماما وكان شغفنا بالقسم الغربي لمجلس دار الطبع والنشر لا يقل عن شغفنا بقسمنا الشرقي، وهناك كنا لا نعتبر أنفسنا ضيوفا وانما أعضاء عاملين. وقد قمت عن شغف بتحرير ترجمة لقصة فلسفية لابن طفيل ترتبط بالأندلس والتي أراد البعض أحيانا أن يرى فيها جد روبنسون كروزو. وبحب لا يقل عن هذا، اشتركت في عمل جاد عن ترجمة قصة اسبانية من عصر الموريسكيين لهنريكه لاريت. ورغم جميع الصعوبات التي كانت تعانيها العلاقات الدولية في ذلك الوقت،

ابتدأت تصلني بالتدريج اعمال المستعربين الاسبان الذين فتحوا امام عيني عالما جديدا وضاء لا تعرف عنه اوروبا الا قليلا. وأصبح معروفا لدي – ولو بعد تأخير كبير – ذلك العمل العلمي الجريء الموهوب الذي ظهر سنة ١٩١٩ عن تأثر «الكوميديا الالهية» لدانتي بالغيبيات الاسلامية. وقد استدعى هذا العمل ما يقرب من مائة تقريظ في كل العالم. وفي هذا الكتاب تحدث المؤلف فيما تحدث عن خصائص «رسالة الغفران» لمحبوبي أبي العلاء. وقد استجبت على هذا بمقالة حاولت أن أعرض فيها الى أن مؤلف الكتاب عبثا يرى في هذه الرسالة الساخرة الرقيقة والممتعة عن التصورات الاسلامية للحياة الآخرة – رواية فقط من روايات قصة معراج النبي محمد.

وقد تسربت الى الخارج وبطرق مجهولة اشاعات عن اهتمامي بالموضوعات العربية الاسبانية. فتلقيت في نهاية عام ١٩٢٦ رسالة من محرر غير معروف لدي شخصيا هو محرر المجلة العالمية «Litteris»، التي كانت تطبع في السويد، وتختص بتحليل الاعمال الرائعة الصادرة بجميع اللغات الاوروبية في مجال العلوم الانسانية. وكان المحرر يطلب مني ان ارسل اليه تقريظا عن الكتاب الذي ظهر لتوه لمستعرب اسباني ناشئ عن احد مصادر قصة ابن طفيل، ويعتذر لي عن توجهه الي، الا انه يضيف انه لا يعرف مستعربين في اوروبا يتتبعون الدراسات التي كتبت باللغة

الاسبانية. وفي ذلك الوقت لم يكن بتروف بين الاحياء. وكان هذا الكتاب معروفا لدي تبعا لشغفي آنذاك بهذا الموضوع. وقد اثار الكتاب انطباعا عظيما. وشعرت فورا بتلك الموهبة الكبيرة في هذا العمل الذي لعله اول عمل لهذا العالم الناشئ. وبكثير من طيبة الخاطر، كتبت المقالة المطلوبة. وفي عام ١٩٢٩ تسلمت طلبا مماثلا بخصوص عمل جديد قام به هذا المستعرب نفسه. وفي تقريظي هذه المرة لم يسعني الا ان ادافع عن المؤلف الناشئ ضد ما استدعاه كتابه من هجوم بدا لي غير عادل، شنه رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق على العلم الاسباني عموما. وعرفت بارتياح فيما بعد ان ممثلي الصحافة العربية الجادة انحازوا الى جانبي في هذه المناقشة العلمية الصغيرة الطارئة. على انني لم اكن على خطأ في تحديدي موهبة ذلك المستعرب الناشئ العلمية. ذلك انه سرعان ما حصل في مسابقة علمية صعبة على احد كراسي الشرف الاسبانية الاولى من كراسي اللغة العربية، كرسي غرناطة. وقد تلقيت رسالة جاء فيها ان تقريظيّ لعبا بعض الدور في هذا، وكان ممتعا جدا لي انه اهداني في عام ١٩٣٤ عمله الجديد وفي بطاقة منفصلة في هذه الطبعة الجميلة، اشارة الى اسم غريب لعالم ما هناك في الشمال في لينينغراد، لعله اثار انطباعا غريبا لدى اهل وطن المؤلف في الاندلس.

هذا وقد ظهرت لي نتيجة اخرى مهمة جدا تتمثل في ارتباط صلتي تدريجيا مع العلم الاسباني، فمنذ تلك اللحظة صرت اتسلم كل جديد يخرج من الكتب الاسبانية يتعلق بالاستعراب. وكان مثل هذا الكرم مبعثا لحيرتي في بعض الاحيان. وكانت الكتب تطبع عادة بطريقة عظيمة بل بطريقة فخمة من وجهة نظر علمنا المتواضع. ومن بين هذه الكتب وصلتني مرارا ابحاث ضخمة مثل ذلك العمل الذي خرج في اربعة اجزاء ضخمة عن ارشيف وثائق «المستعربين» * في مدينة طليطلة. وبفضل ذلك الاهتمام الذي لم يتحول تسلمت، عام ١٩٢٨، مجموعة مقالات في مجلدين لرئيس الاستعراب الاسباني في ذلك الوقت خوليان ريبيرا. وكان تلاميذه قد قاموا بطبع هذه المجموعة بمناسبة ذكرى مرور خمسين عاما على استاذيته. وقد اعجبتني وادهشتني هذه الهدية الجديدة بصورة لا تقل عن تلك المجموعة التي وقعت في يدي مصادفة قبل عشرين عاما وهي المجموعة التذكارية الصادرة تكريما لكوديرا استاذ ريبيرا. وفي هذا الكتاب الذي تسلمته اخيرا عن رئيس الاستعراب الاسباني ينفتح امام القارئ لا التطور البالغ العبر لهذا العالم الكبير فحسب، وانما تنفتح ايضا صورة خلابة عن تطور الاستعراب الاسباني كله طيلة نصف قرن.

---

* هي الطائفة المسيحية الاسبانية التي احتفظت بدينها لكنها تكلمت العربية.

ولم استطع ان اقف دون تأثر امام الاستعراب الاسباني، وآلمني ان لا يكون حتى لدى المتخصصين في البلدان الاخرى الا القليل من المعرفة عنه. وانتهزت فرصة بعض الفراغ في صيف ١٩٢٨، اذ استطعت قضاء شهرين في محافظة بولتافا على شاطئ نهر «بسلا» في بلدة باسم رائع هو «جبل بوت»، وهنالك اعددت عرضا مفصلا عن مجموعة ريبيرا ذات المجلدين. ولم تستطع جدية الموضوع ان تحول بيني وبين دعابة صغيرة باشارتي في نهاية مقالتي المطبوعة الى اسم المكان الذي كتبتها فيه. وما يلتمس لي العذر في هذا ان روزن ايضا سمح لنفسه بدعابة مماثلة. فقد كان قراء تقريظ من احسن تقاريظه، يقفون احيانا محتارين امام كلمة «قلعة الجوع» وهو اسم المكان الذي كتب فيه تقريظه، وكانوا يعرفون انه لم يسبق له مطلقا ان عاش في الشرق. وقد عجز حتى المستعرب عن ان يخمن على الفور ان هذا الاسم ليس الا ترجمة عربية مضبوطة للاسم الالماني لقرية «هونغربورغ» حيث امضى روزن الصيف في المنزل الريفي. فلنترك «كوه بوت» لا تحمل الآخرين على التفكير في الفرس او الهند، وليعلموا انها ليست الا التعبير الفارسي عن كلمة «جبل بوت». وعندما كنت اؤلف باهتمام وشغف مقالتي التي كنت احلم بان اسدد بها بعض ما علي من دين امام الاستعراب الاسباني، تذكرت هنالك في موقف «غوغولي» ان غوغول كتب في وقت ما

عن الخليفة المأمون وان لغوغول صفحات رائعة عن الثقافة العربية هي في الحقيقة صفحات فنان لا عالم. وعرفت فيما بعد ان مقالتي ترجمت في اسبانيا الى اللغة الاسبانية وازداد دعم الصلات بين مستعربي البلدين.

وبالطبع فان تبادل المشاعر لم يكن يستمد وجوده من الكتب وحدها، واذا كانت المخطوطات لعبت في هذه العلاقات دورا اقل فذلك، اغلب الظن، لان في مجموعاتنا آثارا قليلة نسبيا من الاصول الاندلسية والمغربية. ولكن مخطوطنا الفريد المعروف لابن قزمان غالبا ما كنت اقض مضجعه من اجل الرد على استفسارات الاصدقاء الاسبانيين. وكانت حيرتهم لا تقل عن حيرتنا بخصوص لوحة نحاسية مغربية مخزونة في مجموعة لينينغراد. ولم يكن مفهوما معناها آنذاك، ثم قامت بنشر صورتها عالمة في علم خطوط الآثار القديمة*. ولم توجد لوحات مماثلة لها الا في اسبانيا لكنها بقيت في مستواها الملغز الغامض. وصارت تظهر بعض المخطوطات التي لم تدرس من قبل في لينينغراد بفضل مسعى جديد للمستعربين الاسبانيين.

فان هؤلاء المستعربين الاسبان وضعوا بشجاعة في عام ١٩٣٣ بداية لتجربة لم يشهدها من قبل تاريخ علمنا على نطاق واسع، هي تأسيس مجلة خاصة بالاستعراب.

---

* هي زوجة المؤلف الاستاذة كراتشكوفسكايا المتخصصة في هذا العلم بجامعة لينينغراد.

وفي عنوان المجلة ترن تلك الكلمة الساحرة «الاندلس»، وكانت المجلة تتعلق بكل الموضوعات الاستعرابية مع فهم واسع لها ومع اهتمام يميل بالطبع نحو اسبانيا وشمال افريقيا. وكانت المجلة تطبع بطريقة منظمة ولطيفة وكانت صفحاتها المضيافة مفتوحة دائما امام جميع العلماء من جميع القوميات، وامام المقالات المكتوبة باللغات الاوروبية الاساسية. وسرعان ما صارت الكتب الخضراء ل «مجلة الاندلس» مجلة عالمية واخذ يتوجه اليها المستعربون من جميع البلدان. وولدت عندي بالتدريج فكرة عن تعريف الزملاء الغربيين في بعض مقالات متسلسلة، بأهم مخطوطات مجموعاتنا التي ترتبط مع الاندلس او المغرب. وبدأت هذه المقالات بمجموعة قريبة مني في مكتبة الجامعة هي مجموعة الشيخ الطنطاوي التي لم تحرم من الاهمية في هذا المجال ايضا.

وكانت اول مقالة هي عن كتاب اشعار مكتوب بخط مغربي عادي في السنوات الاولى من القرن الثامن عشر وهو مخطوط ممتع بالنسبة لتاريخ الادب في العالم العربي كله. وقد ضاعت بداية هذا المخطوط منذ وقت بعيد. ولهذا كان مؤلفه غير معروف. وبدا لي ان هذا المخطوط فريد الا ان مقالتي كانت دافعة لاكتشاف نسخة اخرى في مدينة «فاس» ولكنه لم تظهر عنه معلومات اكثر من

هذا فيما بعد. وقد حدثت للمقالة الثانية التي اعددتها للعدد التالي من مجلة «الاندلس» مفاجأة ممتعة لها مثيلات كثيرات في حياتي كمستعرب. فقد كان احد تلاميذي يواصل اعداد فهرس المخطوطات الذي كنت بدأت العمل فيه لمجموعة الطنطاوي نفسها فوجد صورة مختصرة لمؤلف كبير الاهمية لتاريخ الادب الاندلسي. وفي رأيي ان هذا المخطوط كان فريدا بالنسبة للمجموعات الاوروبية. ومؤلف هذا المخطوط قريب لي منذ وقت بعيد: فقد كان موظفا كبيرا في الديوان في عصر المماليك بمصر؛ والى جانب هذا وجد ايضا وقتا لاعماله الادبية. وكنت قد اكتشفت في المكتبة الجامعية ايضا مؤلفا آخر له لم يكن معروفا من قبل. ومن ذلك الوقت يرن اسم ابن مماتي بصوت لطيف حان هو «مامتي» اي «امي» وهو الاسم الذي اطلقه على جد ابن مماتي اطفال الشارع القاهريون الذين كان يطعمهم هذا الجد في وقت المجاعة الشديدة التي نزلت بمصر. وكان وصفي لمخطوط ابن مماتي جاهزا في ذلك الوقت الذي تسلمت فيه العدد الجديد من سلسلة الكتب الخضراء «مجلة الاندلس». وكانت دهشتي شديدة عندما فتحت هذا العدد وعثرت فيه فورا على مقالة لصديقي الاسباني الناشئ الذي كان آنذاك احد محرري المجلة. والمقالة هي عن وصف الصورة المختصرة لنفس ذلك المخطوط حسب مخطوط القاهرة

الذي اعتبره كاتب المقالة مخطوطا فريدا. وفقد مخطوطنا هالته ولكن المقالة التي اعددتها ظلت محتفظة باهميتها فصدرت في العدد التالي من «مجلة الاندلس» سنة ١٩٣٥. وقد اعددت مقالات اخرى للسلسلة التي قررت ان اواصل كتابتها، لكن سرعان ما اشتعلت الحرب في اسبانيا وتوقفت «مجلة الاندلس» عن الوصول الى لينينغراد بل ان المجلة لم تعد تصدر بعد ذلك.

وبالطبع ما زالت افكارنا كسابق عهدها تتوجه الى الاندلس. ويتضح هذا من كتيب صغير هو «الثقافة العربية في اسبانيا»؛ ومن مقالة عن الشاعر العربي «الجنان» في الاندلس ومن كتاب كبير عن الشعر العربي في اسبانيا. لكن كان الحزن يكتنف كتابتها وطبعها؛ ذلك لاني عرفت ان هذه الكتب ستبقى غير معروفة لدى المستعربين الاوروبيين الذين قد يكونون اكثر الناس قربا وفهما لها. وازداد حزني في ربيع ١٩٤٢ في لينينغراد المحاصرة، عندما اكتشفت بين مخطوطاتنا ترجمة حياة مجهولة لمؤلف كتاب اشعار «نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب». وتمثلت لي حية تلك السعادة التي سيكون عليها محررو «مجلة الاندلس» لو شاهدوا مقالة عن هذا المخطوط على صفحات مجلتهم... لكن لم الحزن؟ ان كابوس الليل تزول آثاره مع خيوط الفجر. وسنظل نفكر في انه سيجيء ذلك اليوم الذي يبدأ فيه من جديد

جميع المستعربين الاسبان والروس عملهم المشترك في حقل بلا حدود هو حقل العلم الانساني العالمي، وسيجيء يوم تظهر فيه من جديد على مكتب مستعرب لينينغرادي، سلسلة الكتب الخضراء «مجلة الاندلس»

قرة العين.

٦. كل من سار على الدرب وصل

١ ـ لوحات برونزية صغيرة من بلاد ملكة سبأ

(١٩٣٠)

ينبغي لمستعرب الجيل المعاصر، من اول خطوات عمله الذاتي، ان يأخذ بالحسبان قانونا ضروريا هو قانون تصنيف العلم. وليس اليوم كالامس. فلا يمكن له ان يتخصص في آن واحد في ثلاثة مجالات هي اللغة والادب والتاريخ. ذلك ان كل مجال من هذه المجالات قد تطور واكتنز بمادة كبيرة الى حد لا تكفي معه حياة الانسان للسيطرة على هذه الثروة حتى ولو بالنسبة لمجال واحد منها. على ان ثمة، بالاضافة الى هذا التصنيف للعلم اختصاصات جديدة وجديدة تكتسب بالتدريج وجودا مستقلا لها ولا يمكن للعالم ان يسيطر عليها الا اذا اعطاها كل حياته كاملة.

ومنذ نهاية القرن التاسع عشر، وبفضل جهود الهولندي سنوك هيورغرونيه والمجري غولدزيهير تكّون علم الاستشراق الاسلامي تكونا تاما. والعمل الآن في مجال هذا العلم يتطلب اعدادا جديا طويلا. وقد ابتدأت

الدراسات الثانوية تحيا الواحدة تلو الاخرى حياتها الخاصة في التاريخ، وتتمثل هذه الدراسات في علم خطوط الآثار القديمة، وعلم الخطوط الاثرية، وعلم النقود القديمة. وجميع هذه العلوم تتطلب السيطرة على مجموعة خاصة من المعارف اللازمة لها. واخذ علم اللهجات منذ القرن العشرين، يلعب دورا مهما في علم اللغة. تلعب دراسة الادب الحديث دورا مهما ايضا في تاريخ الادب وهي دراسة تستطيع ان تبتلع الانسان تماما اذا هو لم يرد ان يبقى هاويا يلمس الموضوعات المختلفة بالصدفة وبطريقة سطحية.

ومن بين الاختصاصات الضيقة المتعددة في الاستعراب، انفصل منذ وقت بعيد ذلك الاختصاص الذي يمكن ان يسمى، اصطلاحا، علم الدراسات السبئية. وهذا يعني دراسات اللغة والثقافة العربية القديمة في الجنوب. وقد ارتبطت هذه الدراسات من حيث الزمن مع الشرق القديم اشد من ارتباطها مع الشرق في العصور الوسطى، الامر الذي تتميز به المجالات الاخرى في الاستعراب. فان الفرق في اللغة وفي الحروف التي كانت اقرب الى اللغة الحبشية منها الى العربية نفسها، وانعدام التأثير انعداما تاما تقريبا على الثقافة العربية الاسلامية قد تركا علم الدراسات السبئية الى حوزة مؤرخي الشرق القديم او علماء الاستشراق الحبشي. ومنذ نهاية القرن التاسع عشر نمت

المادة العلمية في ميدان الدراسات السبئية بسرعة كبيرة وذلك بفضل ظهور المطبوعات الجديدة التي نشرت الخطوط العربية الاثرية في الجنوب. لكن لم تظهر في هذا العلم الكتب التعليمية العادية: فلم يكن ثمة، خلال مدة طويلة، اي كتاب نحو او قواعد. وكتاب القراءة لم يظهر الا في العقد الرابع من هذا القرن بل ليس يوجد حتى الآن اي معجم لغوي. وقد كانت اداة العمل الاساسية عادة في هذا العلم، «Corpus»، فهرس مجموعة الخطوط الاثرية باللغة السامية الذي يطبعه المجمع العلمي الفرنسي للخطوط الاثرية. واخيرا، اضيف في السنوات الاخيرة الى هذه الوسائل للعمل في هذا العلم «Répertoire»، فهرس لكل ما طبع ونشر من الخطوط الاثرية العربية في الجنوب، وفي هذا الفهرس اشارات الى الابحاث الهامة عن هذه الخطوط الاثرية. وظهر بالتدريج في كل بلد تقريبا متخصص في الدراسات السبئية وقد يقرب عددهم الآن من عشرة اشخاص في العالم كله. وكما يحدث غالبا في العلم فان اعظم العلماء لا يولدون دائما في اعظم البلاد. وحتى العقد الرابع من هذا القرن كان اعظم المتخصصين في الدراسات السبئية من النمسا والدانمارك وبلجيكا وايطاليا.

ولم يكن لدينا مطلقا في مجموعاتنا للآثار العربية القديمة في الجنوب اية نماذج مهمة الى هذا الحد او ذاك.

ولم يتكوّن عندنا اي تراث في هذه الناحية. فقد كان مستعربونا مرتبطين دائما مع الشرق الاسلامي اكثر من ارتباطهم مع الشرق القديم او مع الدراسات السامية. ولم تتولد لديهم اية مبادرة من هذه الناحية ايضا. ولم يكن يحمل احيانا على التفكير في «العربية السعيدة» سوى تلميحات غامضة من صدى الاساطير القديمة. لكن هذه التلميحات لم تجد لنفسها اسنادا في مادة الآثار الحقيقية فذهبت دونما اثر اذ حجبتها بالتدريج صور اقرب لنا من الثقافة العربية في عصر الخلافة.

هكذا كان الامر معي انا ايضا. وقد تمثل امامي في سنوات التلمذة بالمدرسة الثانوية وفي هالة من الرومانتيكية والغموض نموذج ملكة سبأ التي ذهبت في وقت ما الى سليمان الحكيم لتختبر حكمته وتطلب منه حل بعض الالغاز؛ وفيما بعد وجد هذا النموذج لنفسه قبسا من النور في قصة اسلامية عن الملكة بلقيس. وكنت قد عثرت على هذه القصة مصادفة في كتاب القراءة العربية الذي وقع في يدي عندما كنت في السنة الاولى بالجامعة. وقد مدت الدراسات الحبشية في تلك السنوات جسرا للعبور الى جنوب الجزيرة العربية. وعندما كنت استعد لامتحان الماجيستر اعتبرت من المهم التعرف ولو قليلا مع كتاب خوميل للقراء بلغة جنوب الجزيرة العربية المطبوعة بطريقة الليتوغراف. وكان هذا الكتاب هو المصدر

الوحيد آنذاك. ولم يكن هناك غداء جيد في حقل الدراسات السبئية. والتعويذة المعروفة من جنوب الجزيرة العربية وجدت في مجموعة ن. ب. ليخاتشيف المملوءة بمختلف العجائب. لكن هذه التعويذة لا تتضمن الا ستة رموز سبئية. وقد قمت بكتابة مقالة استهدفت منها اكتمال المعلومات عن مجموعاتنا بصورة اكثر من استهدافي اغناء المعرفة عن ثقافة جنوب الجزيرة العربية بصورة جدية. وعندما كنت اتطلع احيانا في الصور او الرسومات الاثرية المأخوذة في المتاحف الاوروبية لم اكن افكر مطلقا في انه قد تأتي لحظة افك فيها بنفسي رموز خطوط اثرية لم تقع في يد احد من قبل، وان احدد اهمية هذه الخطوط. وقد حدث هذا في وقت متأخر جدا، سنة ١٩٣٠، عندما نسيت كثيرا من معرفتي التي كانت لدي اثناء استعدادي لرسالة الماجيستر. ولم اكن اظن ان هذه المعرفة ستكون ضرورية في وقت ما لحل هذه المهمة غير المنتظرة.

وفي نهاية العقد الثالث من هذا القرن ارتبطت لاول مرة علاقاتنا الرسمية المباشرة مع اليمن. وكان مركز هذه العلاقات هو تمثيلنا التجاري في صنعاء العاصمة الحالية لليمن السعيدة. وقد استدعت هذه العلاقات ظهور فيلم عن اليمن، وظهور بضعة كتب صغيرة تحتوي وصف رحلات في هذه البلاد الغامضة فيما مضى التي كان يصعب الوصول اليها. والى جانب هذا كان لهذه العلاقات بعض

النتائج العلمية. لكنها لم تكن للاسف في ذلك الحجم الذي يريده المستعرب. وقد قام الاشخاص ذوو التحصيل الاستشراقي الذين كانوا هناك لمقاصد خيرة بجمع مادة عن اللهجة اليمنية مبتدئين من الكلمات المفردة والاشكال النحوية حتى الوان الحوار المتصلة، وقد جمعوا نصوصا من الادب الشعبي، بل وحتى بعض القصص. وقد جمعت كمية هائلة من هذه التسجيلات لكنها سجلت بدون سابق اعداد تخصصي، وبدون معرفة لعلم اللهجات العربية، وبدون المعرفة الاساسية لطرق التسجيلات المقررة في العلم. وظهر ان كل هذه المواد تقريبا، هي بدون نتيجة للعلم وذلك لعدم امكانية المراجعة الجدية لصحة هذه التسجيلات في مطارحها. وهكذا كانت الصورة حزينة، ومثلها كانت ايضا تلك الصورة التي فتحتها «الآثار القديمة» التي اشتريت بكثرة من اليمن. ولا شك في انه كان اكثر فائدة لو ان الذين سافروا الى هنالك وضعوا لانفسهم هدفا يرمى الى اكمال مجموعاتنا الاثنوغرافية او يرمى الى شراء المخطوطات العربية التي كانت توجد هناك عندئذ وكان من المحتمل ان يكون الاسف اقل بدرجة كبيرة جدا. وواضح ان هواتنا لجمع الآثار القديمة لم يظنوا انه تطورت فى اليمن منذ وقت قديم حرفتها الخاصة بتزييف الجديد حتى يبدو قديما والاساس الذي يستند عليه هذا التزييف بصورة واسعة جدا هو الاساس

التجاري. ففي صنعاء نفسها بل واكثر منها في المدن الصغيرة والقرى المجاورة لها توجد بعض المحلات العجيبة للصناعة اليدوية، وفي هذه المحلات غالبا ما كان الصياغ او الجواهرية او النقاشون، يقومون بتزييف الخطوط الاثرية على البرونز، وبنقش الحجر بحيث يصبح مشابها للتماثيل القديمة وللتعاويذ المختلفة. ولم يكن الاقبال على هذه التجارة في صنعاء كبيرا، لانه كان يعيش هناك عدد صغير جدا من اوروبيين. وانما كانت هذه البضاعة تصدر بصورة اساسية في صناديق كاملة على ظهور الجمال متوجهة بطريق القوافل الى عدن حيث كان مهرة التجار يبيعونها بالمفرق للسفن العابرة للمحيطات التي ترسو بعدد كبير في هذا الميناء. وكان السياح من مختلف القوميات يقبلون بسعادة على شراء هذه «الآثار الالفية من اليمن السعيدة» بل وشكلوا منها احيانا مجموعات كبيرة اثناء عودتهم من رحلاتهم الى الشرق الاقصى او الهند او حول العالم. ولكنهم كانوا يصابون بخيبة امل مريرة في هذه المجموعات عندما يلقي اي متخصص نظرة عابرة عليها. ومع هذا ففن التزييف ما زال مزدهرا حتى الآن. وقد اشترى من هذا الانتاج المزيف زبائن عابرون كان بين المشترين ابناء وطننا ايضا. ومنذ نهاية العقد الثالث بدأت تقع في يدي عشرات من هذه الآثار بل وصناديق كاملة احيانا. وكان اسفي هو على هؤلاء المواطنين الذين نقلوا

الى وطنهم اشياء حديثة، متكبدين مصاعب واموالا كثيرة. وكان ذلك مدعاة الى تنمية تشاؤم قاس لديّ، فقد ابتدأت اتصور ان اي اجنبي عابر يسافر الى اليمن في القرن العشرين بدون استعداد تخصصي واستقصاء دقيق لن يجد اي شيء ذا قيمة بالنسبة للعلم. الا انني وجدت ذات مرة اني كنت مخطئا.

ففي بداية عام ١٩٣٠ جاءني طبيب كثير الترحال، احضر بناء على طلب صديق له كان يعمل آنذاك في تمثيلنا التجاري في صنعاء، لوحتين برونزيتين مكتوبتين بلغة جنوب الجزيرة العربية. وكان من اللازم تحديد اهميتهما العلمية ووضعهما في حالة ثبوت اصالتهما في انسب مجموعة لهما من مجموعاتنا. ولعله يمكنني ان اميز التزييف على الفور اذا كان عاديا وغير دقيق وعندئذ يكون الامر سهلا هينا. اما بالنسبة لهاتين اللوحتين فقد ظهرت امامي مشكلة كبيرة من الوهلة الاولى، هي انه اما ان يكون تزييفهما ممتازا واما انه، لاول مرة طيلة هذه السنين، وقع لدينا اثر حقيقي قديم من جنوب الجزيرة العربية. لكنني لم اصدق هذا الاحتمال الاخير مع ان اللوحتين لا تتشابهان مطلقا من ناحية الشكل الخارجي مع كل ما رأيته حتى الآن من الآثار التي وصلت حديثا من اليمن. فالبرونز مخضر تماما وبعض الاماكن مغطاة بصدأ قديم. وهذا البرونز يذكر بالبرونز الصيني القديم

والسطح الخارجي ايضا بما عليه من رمل ملتصق كما لو كان يتحدث عن اقامة طويلة في باطن لارض. وشكل الحروف بخطوطها الثابتة الرائعة يتميز تماما عما وقع في يدي من النماذج المزيفة. الا ان حل هذه المسألة بناء على المعطيات الخارجية عملية فجة جدا. وكان يلزم في الدرجة الاولى تحليل الخطوط وتفسير ما تتحدث عنه وكيف تتحدث. ومثل هذه العملية لم يحدث لي مطلقا ان قمت بها. وكان دخول التجربة الاولى عملية مخيفة. وبالطبع كان من غير الممكن رفض القيام بها، فهذا ما لا يسمح به شرف علمنا. وكان من غير المريح في حقيقة الامر ان نستمع الى نصيحة بعض ممثلينا الذين ارادوا ارسال الخطوط الى ايطاليا للتحقيق من صحتها لعدم وجود متخصصين في هذه الناحية لدينا. وهذه النصيحة عرفتها قبل ان اتسلم هاتين اللوحتين في يدي، لكنها لم تكن مرضية لي الى حد كبير. ولهذا دفعتني بصفة خاصة الى القيام بهذا العمل. وقررت الا اتسرع والا اتأثر قبل الاوان. وكانت اجابتي ان هاتين اللوحتين تبدوان لي، من الانطباع الاول، حقيقيتين اصليتين لكن تحليلهما يتطلب بعض الوقت.

وكان من اللازم قبل كل شيء استيضاح ما اذا كانت توجد لوحات مماثلة لهاتين اللوحتين في المجموعات الاوروبية، والى اية درجة تتفق هاتان اللوحتان مع هذه اللوحات المماثلة في المحتوى والمضمون. وكان

17*

من السهل العثور على «اللوحات المماثلة» بفضل فهرس مجموعات الخطوط الاثرية السامية («Corpus») المطبوع في باريس والموجود في مكتبتنا. وظهر ان اللوحات المعروفة حتى الآن هي اربع او بمعنى ادق ثلاث ونصف، لان احداها لا يوجد منها سوى النصف العلوي فقط. وانه توجد اثنتان منها في لندن واثنتان في فيينا. وهذا الواقع قوى تشككي. وكان من الصعب الافتراض ان مثل هاتين اللوحتين النادرتين استطاعتنا ان تقعا بالصدفة في يد مشتر عابر. فان تجار الآثار القديمة اليمنيين يعرفون جيدا قيمة الآثار القديمة الحقيقية، وكان يمكنهم ان يبيعوا هاتين اللوحتين بمزيد من الربح.

على ان الحل التدريجي لرموز النصوص لم يكشف لي عن شيء يمكن ان يشير الى وجود تزوير. وامكنني بسرعة ان افسر معنى مضمون هاتين اللوحتين وذلك بفضل اللوحات المماثلة الموجودة في الفهرس. وهاتان اللوحتان كمثيلاتهما من النماذج التي عرفت من قبل، هما من اللوحات التي تعرف بما يسمى «بلوحات الاستغفار» التي كانت تعلق في المعابد وتتحدث للجميع عن تلك الذنوب التي ارتكبها من قام بتعليقها. ولما كان غالبا ما تتردد اسماء النساء فانه امكن الحكم بانه من المحتمل ان المذنبات كن كاهنات في معابد جنوب جزيرة العرب. وان ذنوبهن هي عادة اخطاء في القوانين او النذور، واغلبها يتعلق بالمراسيم

والطقوس الدينية. على ان اسماء التائبين والمستغفرين (التي وردت في اللوحات) هي اسماء مختلفة، اما المعبد فتغلب عليه تسمية واحدة. وكان من الواضح ان اكثر هذه الخطوط يرجع في الاصل الى مكان واحد. على انه قد نشأت صعوبات عند تحليل هاتين اللوحتين، لا سيما عندما صارت اللوحات المماثلة المعروفة لي غير كاملة وكافية. ومما حيرني انه ظهرت في اللوحتين اسماء آلهة وشخصيات مجهولة حتى الآن. ووجدت كلمات وتعبيرات غير معروفة لدي ايضا. ولم اكن اصدق تماما ان هاتين اللوحتين اللتين ظهرتا عندنا تحملان ثروة كبيرة لمعلوماتنا لا من وجهة نظر ثقافتنا العامة فحسب، بل وتحملان ايضا المعلومات الخاصة بمسائل محددة تتعلق بذخيرة الكلمات والاسماء الشخصية. ولقد اعتقدت انه لما كانت قراءاتي عن الآثار باللغة السامية قليلة، ولما كنت لم احصل على هذه القراءات الا في اثناء حركة عملي على اللوحتين، لذلك فان بعض الحقائق بقيت لي ببساطة غير معروفة. وعندئذ قررت ان آخذ الامر بطريقة مألوفة جيدا، واعني بها الروابط والصلات الدولية بين العلماء. وبدأت اتوجه الى متخصصين كبيرين في النمسا والدانيمارك من اجل الاستفسار عن الاسئلة التي تواجهني. كان اولهما قد تعرفت به عن طريق المراسلة. وقد اشتغل كثيرا بالشعر العربي في اعوام شبابه، وقبل ان يتركز في الدراسات السبئية. وكان

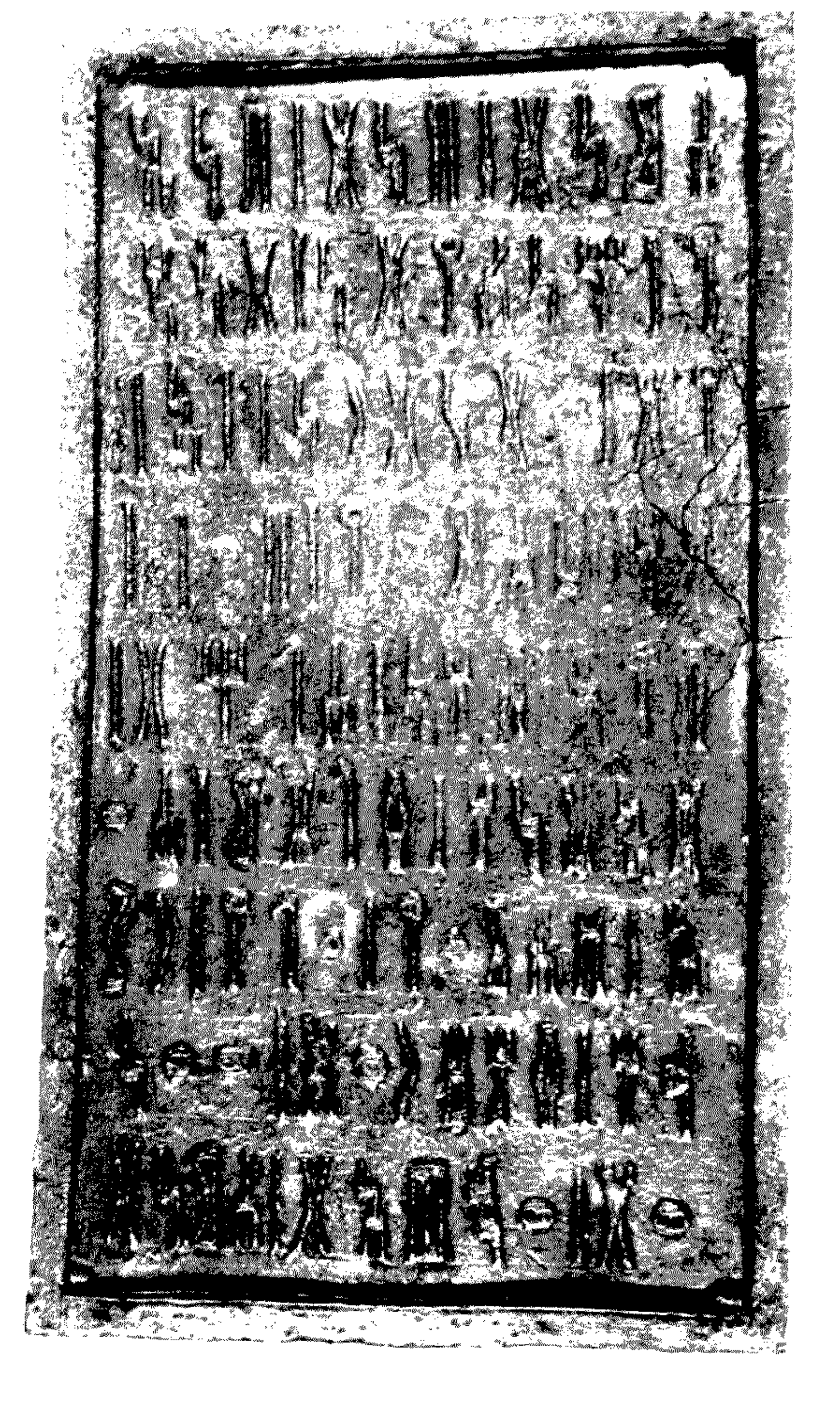


институт востоковедения
и таджикистанская база

Согдийский сборник

издательство академии наук СССР
Ленинград

مجموعة صغدية. الغلاف. لينينغراد، ١٩٣٤.



لوحة برونزية من اليمن عليها كتابة سبئية.

رأيه مهما لي بصفة خاصة كعالم قريب من مجموعات فيينا، وبالطبع كخبير بلوحات الاستغفار الموجودة هناك. اما الباحث الدانيماركي فكان قبل ذلك بوقت قليل قد قام بنشر اول جزء من الفهرس الكبير للآثار العربية القديمة. وسرعان ما ارتبطت المراسلات بيننا، لكن الفرق في مزاج كلا العالمين كشف لي عن اشياء ممتعة جدا. ولعل الزميل من النمسا هو المستشرق الكبير الوحيد من اليونانيين. وقد حاول بطيبة خاطر تفسير النواحي التي لم افهمها والتي يمكن انها كانت تبدو له احيانا اشياء اولية بسيطة. وقد دلني على الوقائع المماثلة المختلفة وتقدم باراء مختلفة وايدني في اعتقادي حول اصالة اللوحتين. اما الدانيماركي فكانت علاقته بي اكثر صرامة. ولعله لم يود ان يغرق نفسه في تفاصيل هاتين اللوحتين. واكد لي انه يلزم اولا توضيح ما اذا كانت هاتان اللوحتان البرونزيتان حقيقيتين بالفعل ام لا. وهل تساويان ان نحطم عليهما رؤوسنا ام لا؟ وابدى استعداده، في حالة ارسال صور هاتين اللوحتين، لاعطائها الى احد تلاميذه لدراستها، وعلى حد تعبيره فان هذا التلميذ اشتغل خصيصا على مثل هذه المواضيع. لكنني وجدت انني لو عملت برأى هذا العالم الدانيماركي فان هذا يعني الاعتراف بعجزي، والتخلي عن قصب السبق لعلمنا قبل اختبار جميع الوسائل والطرق فى بحث اللوحتين، وكان هذا بالطبع مخجلا لي. ففضلت ان «احطم رأسي»، وواصلت

لجوئي النادر لطلب مساعدة ذلك الاستاذ الخير من مدينة غراتس.

وتحت اصراري اخذت الخطوط تتضح لي اكثر فأكثر، وان يكن ببطء، حتى خطوط اللوحة الثانية التي تعاني بعض اماكنها من الصدأ معاناة شديدة. فانفتحت لي بالتدريج رموزها المتآكلة تماما من النظرة الاولى. وقد ساعدتني كثيرا في بعض الحالات عين حادة في تعرف رسم الخطوط ومتخصصة في تطور الخطوط، واعني بها عين زوجتي التي سهلت نقل ورسم صورة الاصل لاجل طبعه على الزنكوغراف. فلم تكن في مطابعنا الحروف السبئية بالطبع. ولقد خاطرنا وجدنا بتحفظ بعض الرموز الممسوحة تماما. وبعد ان نشرت مقالتي عن خطوط اللوحتين، قام خبير متخصص في تجديد الآثار بتنظيف اللوحتين وظهرت بعض رموزهما اكثر وضوحا، واسعدنا اننا وجدنا ان افتراضاتنا وتجديداتنا للرموز كانت صحيحة. وقويت ثقتي في اصالة اللوحتين اللتين وقعتا في ايدينا: ذلك لانه لا يمكن ان يقوم بتزويرهما هكذا بمنتهى الدقة الا خبير عظيم وعالم كبير، ولا يمكن افتراض وجود مثل هذا العالم في جنوب الجزيرة العربية. صحيح انه قد بقي هناك احتمال آخر هو انه يمكن ان تكون خطوط اللوحتين قد نقلت حديثا من اصل قديم. لكن مثل هذا الاصل لم يعرف في العلم حتى هذه اللحظة. ومعنى هذا انه حتى اذا كانت اللوحتان هما في الحقيقة

صورة عن الاصل فانهما ما تزالان اذن منطويتين على اهميتهما العلمية.

وبالتدريج، خطوة بعد خطوة، عملت كل ما كان في وسعي. وقررت ان اطلق سراح اللوحتين لحكم العلم الدولي. فنشرت صورتيهما مع دراستي لهما التي استطعت ان اقوم بها في حدود قدرتي. وعملت كل هذا بخوف شديد. وكان يساورني خوف ضئيل من انني ربما اكون قد اخطأت في قراءة او تفسير بعض التفصيلات الجزئية. واردت ان يقوم اي عالم بتفسير ما بقي مشكوكا فيه لدي، لكنني خفت ان يظهر فجأة ان اللوحتين مزيفتان، فأجلب لنفسي سمعة سيئة طول الحياة مثل اولئك الفرنسيين المتخصصين في الآثار القديمة الذين لم يستطيعوا اكتشاف تزييف «تاج سايتافيرن» المشهور من مدينة اوديسا.

على انه كان قد ظهر دليل آخر في صالحي حتى قبل صدور مقالتي. فقد جرى في معمل كيميائي تحليل للبرونز الذي صنعت منه اللوحتان. واظهر التغيير الذي طرأ عليهما ان اللوحتين استمرتا في الارض ما لا يقل عن الف عام. وهذا الواقع مرتبطا مع الاعتبارات السابقة المتعلقة بنصوص اللوحتين حل المسألة من وجهة نظري بصورة قاطعة. ومع هذا بقي عندي شيء من الخوف.

على انه سرعان ما طار هذا الخوف تحت تأثير الاستجابات الاولى لنشر اللوحتين. وادت قلة المتخصصين

الى ان جميع المتخصصين في الدراسات السبئية استجابوا لهذا الكشف الجديد بمختلف الوسائل. واظهر هذا الكشف مرة اخرى كل دولية العلم في مجال دراساتنا. وبهذه المناسبة قام اكبر ممثلي هذا المجال العلمي وهو بلجيكي، بكتابة مقالة خاصة عن خطوط اللوحتين. وقد اشار الى بعض آرائه الخاصة في تفسير بعض التفصيلات الا انه اقر صراحة باصالة اللوحتين. وبعد عدة اعوام قام هذا العالم بتسجيل اللوحتين في «Répertoire» (فهرس الخطوط الاثرية) لجنوب الجزيرة العربية الذي الف بناء على طلب المجمع العلمي الفرنسي للخطوط الاثرية. وبهذا فان هذا العالم وطد تماما مكانة هاتين اللوحتين بفضل سمعة هذا الفهرس. وبعد ذلك صدر كتاب عن تحليل الاسماء السامية الجنوبية القديمة، وفيه ضمن هذا العالم هاتين اللوحتين. وقام عالم ايطالي في كتابه المتعدد الاجزاء عن فكرة الاستغفار في اديان كل العالم بالقاء ضوء عميق على اهمية هاتين اللوحتين في التاريخ الديني. واستجاب لهاتين اللوحتين ايضا ذلك البطل في الدراسات السبئية في المانيا البالغ من العمر ثمانين عاما، وكان قد ورث اهتمامه بهذه الدراسات عن والده الذي كان في وقت ما من الرواد الاوائل في هذا المجال. وقد استطاع هذا البطل ان يجمع بين دراسته العميقة للشرق الادنى، وبين اهتمامه بجنوب الجزيرة العربية، وهو ايضا لم يشك في الاعتراف باصالة اللوحتين. وبفضل

مقالتي التي نشرتها، تعرفت مع العلماء الانجليز الناشئين في الدراسات السبئية الذين اخذوا يتوجهون الي باسئلة مختلفة، غير عارفين انني لست الا ضيفا طارئا على هذا المجال العلمي. اما ذلك الزميل الدانيماركي فقد تغلب على تشاؤمه الاول. وفي مقالته عن ثقافة جنوب الجزيرة العربية التي كتبها خصيصا لمجلتنا «اخبار التاريخ القديم»، اشار الى مقالتي دون اي تحفظ او اعتراض. وهكذا فان «اجماع الامة» هذا بشكله الخاص في «جمهورية» العلم الدولي، هدأني تماما وكان مكافأة لي على كل ما عانيت وقاسيت في تحليل هاتين اللوحتين. وكان لهذا الاجماع نتيجة «عالمية» اخرى. ذلك انه عندما عقد المؤتمر الدولي للمستشرقين في ليدن ١٩٣١، اختيرت لجنة خاصة لبحث ونشر الآثار القديمة لجنوب الجزيرة العربية، كان ضمن هذه اللجنة ممثل بلادنا ايضا. وهكذا بفضل علاقتنا المعاصرة مع اليمن وقعت لدينا بالصدفة لوحتان اثريتان من مملكة بلقيس الاسطورية ويمكن ان تستخدما لدينا في وقت ما كبداية متواضعة لتراث العلم السبئي.

٢ ـ رسالة من بلاد الصّغد
(١٩٣٤)

ان العالم السعيد هو الذي استطاع في عصره ان يراقب ميلاد وتطور فرع علمي جديد، وهو الذي ظهرت امام عيونه

اكتشافات غير متوقعة، وتطورت امامه دراسة المواد المكتشفة، فخلقت بالتدريج صورة عظيمة مجهولة لاجيال البحاثين السابقين. هكذا كان الامر في حياتي مع اللغة والثقافة الصغدية التي ازدهرت خلال عدة عصور في آسيا الوسطى، بل وامتدت فروعها بعيدا خارج حدود بلادها. وعندما انهارت هذه الثقافة امام ضغط العرب فانها لم تفن تماما، بل انتقلت بطريقة طبيعية الى مرحلة جديدة استمرت كخط واحد متصل في تطور ثقافة آسيا الوسطى.

وعندما نظرت من جانبي كمتفرج على المحاولات التي لا تكل، وعلى السعادة التي يحس بها العلماء جيدا في اكتشافاتهم، فيما قام به رفاقي الاكبر مني سنا في فكهم باصرار وخطوة بعد خطوة لرموز السطور المجهولة منذ وقت قريب، هي سطور المخطوطات الصغدية التي كان يتوالى اكتشافها، اقول عندما نظرت الى هذا، فانني لم اكن افكر مطلقا في انني كمستعرب بعيد عن تاريخ آسيا الوسطى، سيقدر لي ان امارس بدوري هذا العمل. ولم اكن افكر مطلقا انه سيقع في يدي اثر عربي فريد من نوعه لا يقدر بثمن للعلم، ويعكس بوضوح تلك اللحظة التراجيدية للصراع الاخير بين الصغديين والعرب. لكن هكذا اراد لي القدر. ففي لينينغراد وعلى احدى المناضد استلقت المخطوطات الصغدية والعربية جنبا الى جنب، وجلس مستشرق في العربية ومستشرق في الفارسية جنبا الى جنب

ايضا ينظران باهتمام في الحروف شبه الممسوحة. وانه لمن الصعب ان نحدد ايهما الذي تلألأ امامه اول شعاع كشف طريق الرشاد. انه الشعاع الذي مس كليهما في آن واحد كأنه التيار الكهربائي.

ففي عام ١٩٣٢ في مدينة لينينغراد هاج المستشرقون في الفارسية على اثر اشاعة تقول انه قد اكتشفت في تاجيكستان مخطوطات صغدية. ومن المعروف انه لم تكن قد اكتشفت مطلقا حتى تلك اللحظة اية مخطوطات صغدية في بلاد الصغد نفسها، وما اكتشف منها كان في المستعمرات الصغدية في تركستان الشرقية. على ان الاشاعات تقوت، واخذ الناس يتحدثون عن آثار للمحفوظات اكتشفت على جبل موغ على الشاطئ الجنوبي لنهر الزرافشان. واخيرا، وفي خريف ١٩٣٣ اعدت بعثة صغيرة قامت هناك بحفريات منظمة. وتأكد كل ما قيل. فثروة المواد الصغدية التي اكتشفتها البعثة، غطت بضوئها على كل الاكتشافات السابقة، بل واعجب من هذا، انه وجدت هناك عدا المخطوطات الصغدية بعض المخطوطات العربية، والصينية، كما لو كانت تعكس تماما تلك الصورة السياسية المعقدة لآسيا الوسطى في ذلك العصر.

واخذت اخبار المخطوطات العربية تطير الى لينينغراد قبل عودة البعثة. لكن هذه الاخبار حملتني على التشاؤم وقلما افترضت احتمال وجود اكتشافات قيمة بين

المخطوطات. وقيل ان هذه المخطوطات مكتوبة على الجلد، لكن ما عرف من الوثائق العربية المكتوبة على الجلد في كل العالم حتى ذلك الحين، هي ست فقط، وكان من الصعب الافتراض بأنه في تاجيكستان بالذات، وليس في البلاد العربية توجد زيادة لهذا العدد. وكان اسرع ما تخيلته هو ان هذه الورقات هي من اوراق الرق التي كتب عليها القرآن، وبالطبع قد يكون ذلك شيئا ممتعا، لكنني لم اتصور وجود شيء ذي ندرة خاصة. ودعمت هذه الفكرة رسالة من رئيس البعثة فريمان، وهو رفيقي الاكبر في سنوات الدراسة بالكلية، اخبرني فيها فيما اخبرني، انه وجد من حفريات البعثة قطعة جلدية صغيرة رقيقة، عليها كلمة عربية واضحة هي «لا اله...» ويمكن ان تكون جزءا من الشهادة العادية للعقيدة الاسلامية. وحقيقة، وصلت اشاعات ان من شاهدوا هذه المخطوطات فى آسيا الوسطى، رأوا هناك اسم طرخون وهو ما كان يسمى به احد كبار الحكام الصغديين في عصر فتوح العرب، لكنني ملت الى ان اعزو هذا الى الولع المغتفر من الراغبين في ربط المخطوطات المكتشفة بتاريخهم المحلي.

ومع هذا جذبني حب استطلاعي الى هذا العمل. وحاولت ان اتسلم صورة من المخطوط. لكن لم يمكن تحقيق ذلك في آسيا الوسطى لسبب ما. وتولد صراع بين السلطات حول مسألة ملكية المخطوطات، ومن الذي يجب اعتباره

مالكا لها جميعا؟ واين ستخزن بعد ذلك؟ ولمن توكل دراستها؟ ووصلت المخطوطات لحسن الحظ آخر الامر الى لينينغراد. وهناك ايضا كان بعض الاخذ والرد فيما يتعلق بالمكان الذي تتم فيه دراستها. وعلى كل فقد عرفت في كانون الثاني (يناير) ١٩٣٤ ان المخطوطات ستحفظ مؤقتا في قسم المخطوطات بمكتبة اكاديمية العلوم. وكنت مريضا ودرجة حرارتي عالية، الا اني لم استطع بالطبع ان اصبر اكثر من ذلك. وفي اليوم التالي توجهت الى مبنى اكاديمية العلوم سائرا في شارع الرصيف الجامعي الذي عرفته طيلة سنوات. ولم اذهب بمفردي بل كانت معي زوجتي التي انغمرت مدة العشر سنوات الاخيرة في اسرار علم تطور الخطوط العربية وعلم خطوط الآثار القديمة، لدرجة انها تستطيع ان تقرأ الخط الكوفي احسن مني، وتذكرت معها ببشاشة كيف انه منذ ربع قرن مضى كنا نشاهد مساجد القاهرة، وبسؤالنا عن بعض الخطوط الاثرية هناك، اجاب بعض العرب المتعلمين القائمين هناك بتعجب: «ان هذا بالخط الكوفي ومن المتعذر قراءته!» والآن فان موهبتها في فهم الخطوط وعينها الحادة، قد ساعداني مرارا في فهم بعض الخطوط في المخطوطات التي كانت غير واضحة لي، رغم كل دراستي للغة العربية التي اعطتني سنوات مديدة، على ما يبدو، حق الادعاء بمعرفتها.

في الطابق الاسفل للمكتبة، في قسم المخطوطات، وجدنا عند المنضدة الكبيرة البان (السيد) فريمان كما تعودنا ان نسميه منذ سنوات التلمذة بالجامعة. وكان غارقا فيما حملته البعثة من الكتابة او «العصيّ» الصغدية، وكان مغتربا بافكاره وخياله مع المخطوطات الصغدية، مع انه كان يبدو عليه كالعادة هيئة الصرامة والجد بنظارته الدائرية التي كان يرفعها الى جبهته كل دقيقة. وكان قد اعد لنا مظروفا فأخرج منه وثيقة راغبا في معرفة الانطباع الذي ستثيره فينا. ومن النظرة الاولى لها شعرت انني قد صرعت تماما. ولست ادري امن ارتفاع حرارتي او من انفعالي، غلى الدم في رأسي وعلت عيناي غشاوة، وامسكت بعجز في يدي، بقطعة الجلد البالية التي اكلها الدود. ولم ار من خلال الغشاوة الحمراء سوى حروف عربية متقطعة. ولم استطع ان اميز اية كلمة عربية واحدة مرتبطة. واخذ قلبي ينبض كأنما كان يريد ان يقفز من صدري. وكان اول شيء مرعب خرجت به، هو «انني لن افهم اي شيء!». ولكن الخجل اعتراني، فحملت نفسي بشدة كبيرة على النظر مرة ثانية، الا اني وجدت نفسي عاجزا عن النظر بثبات. فقد ابتدأ يكسو عيني ضباب احمر. وجمعت كل ارادتي بدفعات عصبية يتفق ايقاعها مع ايقاع نبضات الدم. واخذت اتطلع في هذا المكان او ذاك من الوثيقة، اذ لم يعد في وسعي ان اثبت النظر على اي شيء لمدة طويلة. وتوالت

الافكار محمومة عند كل دفعة. وبدون وعي همست: «نعم، في السطر الاول بقايا صيغة الابتداء العادية «البسملة». يعني ان هذا بداية لشيء ما وليس مقطوعا من الورقات الداخلية... ها انه يوجد حقا في الوسط اسم طرخون... واذن فهذا ليس قرآنا... لكن ما هو اذن؟». واخذ الفكر يطرق في رأسي بعجز والم، والدم ينبض بعنف في الآذان. «لعلها رسالة؟ ها هو يرد في نهاية السطر الثاني بالضبط «من... مولاه... لكن الاسم... الاسم؟ «ديوا»، «ديوا» — ها هو يقف بوضوح اسم «ديوا» مع «ي» ممدودة و«ا» ممدودة! ما هذا الهراء؟ اي اسم هذا؟ ثم يبتدئ السطر التالي بصورة اكثر سوءا فمع انه واضح ان الكلمة تقرأ «ستّي» لكن هذه الكلمة لا يمكن ان تكون باللغة الفصحى لان كلمة «ستي» لا تستخدم الا في العامية ومعناها «سيدتي». لاي شيء اذن يوجد هذا هنا؟ في نهاية احد السطور «ديوا» وفي بداية السطر الثاني «ستي»...» وفجأة ومن جديد طرقت دقات النبض: «أليس من الممكن هنا انهما لفظ لكلمة واحدة مجزءة؟! ان مثل هذه التجزيئة توجد في كتابة اوراق البردي العربية الاسلامية من مصر: ديواستي... ديواستي... لا يوجد مثل هذا الاسم!.. ها هو طرخون يذكر في الكتب عن آسيا الوسطى، ولا يوجد هناك اي ديواستي... ما العمل اذن بهذه الشيطنة؟ لكن ما يوجد بوضوح هنا هي كلمة ديواستي...» وتوجهت

صاحبتي بالكلام الى فريمان وقالت له متعجبة: «هل يوجد لديكم في الوثائق الصغدية اي اسم ديواستي؟». فارتعد فريمان ورفع نظارته على جبهته وقال لها في النهاية بتعجب مجهول: «لا... لكن ذكر في كل مكان اسم مشابه لكلمة «ديوانستيج» ولعلها كلمة مرتبطة بكلمة «ديوان» ولعلها لقب...» وصحت: «لكن هنا لا يوجد في الكلمة العربية حرف «ن» فالكلمة ببساطة هكذا: ديواستي!..» وفجأة لمعت لي فكرة جديدة؛ فقفزت من على الكرسي، وهربت، واثار ذلك دهشة كبرى لدى جميع الجالسين على المنضدة، ولدى المستشرق الناشئ في الدراسات الفارسية، الذي اتى الى فريمان لسبب ما وكأنما هو قد تحجر من منظري الجنوني، ومن ذلك الحوار الغريب. وهرولت على السلم الجانبي لاسرع الى الطابق الثامن، حيث يوجد معهد الاستشراق، والقسم الاستعرابي. وهناك على الرف يقوم اثنا عشر جزءا لمؤرخنا الاساسي الطبري. وكان يزهو في نفسي امل، فلعلني اجد فيه فجأة حل لغز ذلك الاسم الذي طفا. ومن الخير انني لم اصادف احدا على السلم او في القسم الاستعرابي، ذلك لانني شعرت بأن منظري قد يثير الفزع. فقد كنت في حالة لم اكن استطيع معها ان ابين بوضوح ما حدث لي.

ووصلت الى الرف المعروف لدي جيدا وانا الهث من الجري، وتناولت فهرس مجلدات الطبري واخذت اتصفحه

محموما بحثا عن اسم مشابه لذلك الاسم. كان كل شيء يبدو في عيني مزدوجا، الا انني نظرت بسرعة في جميع الكلمات تحت حرف «د» حتى نهاية الحرف. «لكن لم يكن لكلمة ديواستي وجود» — وهبط قلبي حزينا. وفجأة وفي بعض السطور السفلى لمعت امامي كلمة «ديواشنى». فكدت اصرخ: «يا سلام، الفرق في النقط فقط! انهما شيء واحد!» لكنني لم اصدق نفسي. فأخذت اتصفح تاريخ الطبري نفسه تحت رقم الصفحات التي اشار اليها الفهرس. وهناك لم يكن اي احتمال للشك. ففي تلك الصفحات يدور الحديث عن آسيا الوسطى ووصف حوادث بداية الاعوام المئوية الهجرية. على انني لم اكن في حالة تسمح لي بأن ادقق النظر، ولم يعد هناك اي تردد بعد ذلك، وفي داخل نفسي كما لو كان كل شيء يتلألأ، وهرولت بسرعة متجها الى اسفل، ليتني كنت اصغر بعشرين عاما فاهبط السلم منزلقا على درابزينه. وهببت كالزوبعة في قسم المخطوطات ووقعت على الكرسي، ولم استطع الا ان اهمس لفريمان الذي لم يفهم سبب هرولتي غير المنتظرة: «لقد وجدت ديواستي!». وقد كان ذلك غير متوقع الى حد ان، ثلاثة ازواج من العيون نظرت الي بتعجب يشوبه خوف. وعندما هدأت قليلا بينت بعبارات متقطعة حقيقة الامر، فعمت البهجة الجميع وشعروا للتو ان هذا الاكتشاف قد اتضح وانه وقع في يدي خيط هاد.

وقد حدث لي رد فعل على الفور بعد كل تلك الانفعالات. فقد شعرت بانهيار قوتي تماما ولم استطع في ذلك الصباح ان ادرس الوثيقة اكثر من ذلك. ولكنني صرت هادئا، وما يزال بانتظاري عمل طويل جدا وصعب جدا. لكنني كنت اعرف تماما انني اقف على طريق الرشاد. وفي اليوم التالي وبمزاج مختلف تماما بدأت بتسلسل في فك رموز هذه الرسالة وبالدراسة التفصيلية في صفحات مؤرخنا الطبري، التي تتناسب مع هذه الرسالة. ومنذ ذلك الحين فقط استطعت التطلع في هدوء الى تلك الخطوط التي لم تعد تخيفني، واذ ذاك فقط استطعت ان اقدر كل تقاسيم جمال الرسالة التي كتبها خطاط الديوان الخبير. وكان كل يوم يحمل السعادة والحزن معا، وتداخلت الاكتشافات الصغيرة مع خيبة الامل. لكن كل هذا لم يكن شيئا مرعبا لي. ذلك ان قطعة الجلد التي انكمشت، وظلت في الارض مدة اثني عشر قرنا لم تستطع ان تخفي اسرارها لدى التحليل الدقيق الذي قام به عالم في تطور الخطوط الاثرية. ولم تستطع هذه القطعة الجلدية ان تصمت امام شهادة العيان للمؤرخ الذي حفظت اخباره في كتاب الطبري الذي لا يقدر بثمن.

وفي الحق، لقد كان اسم ديواستي مفتاحا لكل شيء، فهو لم يوضح هذا الرسالة العربية فحسب، بل ووضع اساسا ثابتا لفهم الوثائق الصغدية. وظهر ان الديواستي كان اميرا صغديا، وقعت بقايا محفوظاته في يد تلك البعثة على جبل

موغ. وان لغز اسم ذلك الامير العربي، الذي وجه اليه الديواستي رسالته، امكن حله بمجهود اقل. وحمل هذا الاسم بدون انتظار تاريخ الوثيقة الدقيق وهو العام المئوي الهجري اي تقريبا ٧١٨ـ٧١٩م. وحرفا وراء حرف امكن تملك جميع حقائق الرسالة. وامكن بسرعة وضع قطعة الجلد المتآكلة ـ التي تحمل الصيغة الابتدائية للشهادة الاسلامية ـ في مكانها من الوثيقة. وكانت البعثة قد وجدت هذه القطعة الجلدية منفصلة عن الرسالة. بل وامكن بصورة اساسية اعادة بناء سطور الرسالة التي اكلها الدود الشره. والآن عندما انظر الى الصورة الشمسية للرسالة المكتوبة على الجلد بعد ان سوي انكماشها اعجب انا نفسي لاستطاعتنا فهم تلك السطور التي بقي من كلماتها حرف او اثنان، بل ولاستطاعتنا تصيد المعاني من الاماكن المتآكلة. وشعرت بالفخر بعلمنا وبطرقنا المضبوطة، التي امكن بها ايجاد اشياء كانت تبدو احيانا من النظرة الاولى، انها هالكة بلا رجعة.

وبدا لي ان الجميع شعروا مثل هذا الشعور حتى المتخصصون في المجالات الاخرى المختلفة تماما، الذين اجتمعوا بعد اسبوعين، في شهر شباط (فبراير) في جلسة من دورة اكاديمية العلوم، التي كانت بمناسبة حساب ما قامت به البعثة على جبل موغ. كان القراء يجلسون عادة فرادى في زوايا متفرقة من قاعة القراءة لمعهد الاستشراق،

اما في ذلك الوقت فكانت هذه القاعة مكتظة، ولم تكن جميع الاماكن مشغولة فحسب بل وجميع ممراتها تقريبا. ووصل الامين الدائم لاكاديمية العلوم في منتصف الجلسة وما ان فتح الباب، حتى تراجع عفويا الى الوراء. فقد كان المنظر غير عادي الى درجة كبيرة بالنسبة لهذا الشخص، العارف بصورة الجلسات الدورية لطائفة المستشرقين. وفي الحق، لقد كان ذلك احتفالا. انه احتفال بالبعثة، التي اغنت العلم بمواد كانت غير معروفة، وهو احتفال بالعلم نفسه، الذي يتحدث بصوت مسموع عن قوته، التي رفعت معرفتنا الى درجة كبيرة امام عيون الجميع.

وبالطبع لم تنته دراسة الوثائق بهذه الجلسة، ولم تنته ايضا بأن طبعت في تلك السنة «المجموعة الصغدية» بما فيها من وضوح للنتائج الاساسية العلمية وللابحاث المتسلسلة لهذه الرسالة العربية التي اذكرها الآن. واتضح مع مرور الوقت ان اسم البطل الاساسي لهذه الرسالة يجب ان يقرأ ديواشتي لا ديواستي. وامكن التأكد من اسم القلعة التي التجأ اليها مع اصحابه الصغديين بعد قطع العلاقات نهائيا مع العرب. بل وامكن ايضا تحديد نوع الماعز الذي كتبت الرسالة على جلده. ولعل كثيرا من التفصيلات تظهر عند بحث هذه الوثيقة في المستقبل، وآمل ان يستطيع احد قراءة الكلمات والحروف المتقطعة ــ التي بقيت لنا لغزا ــ بصورة احسن واكمل

مما فعلت. الا ان هذه كلها اشياء جانبية. فقد انفتح الطريق الرشيد منذ تلك اللحظة التي لمع فيها لاول مرة اسم غريب ملغز هو اسم ديواستي. انها لحظة الدفعة اللاشعورية للفكر، لحظة الاكتشاف. وكانت هذه اللحظة بداية لطريقة التحليل العلمي. وها هو ذلك الاسم يرن الآن، بفضل هذه اللحظة، رنينا قريبا ومفهوما لدى جميع المستشرقين في الفارسية وجميع مؤرخي آسيا الوسطى. وان ذلك المستعرب ليشعر ببهجة بأن الرسالة التي وقعت في يده من بلاد الصغد لم تكن اثرا مشهورا ورائعا لعلم تطور الخطوط الاثرية العربية فحسب، بل ومصدرا تاريخيا من الطراز الاول.

وبعد هذا الاكتشاف على جبل موغ دخلت دراسة الثقافة الصغدية في مرحلة جديدة من تطورها، لكن قسوة القدر لم تمكن شخصين من القيام بدورهما في هذه الدراسة، في حين انهما كانا يملكان الحق في هذا اكثر من العلماء الآخرين جميعا. احدهما هو س. ف. اولدنبورغ الذي كان بنفسه في آسيا الوسطى وفي تركستان الشرقية والذي اغنى بنفسه العلم بما عثر عليه من المخطوطات الصغدية. وكان في طريق الموت بسبب المرض العضال الذي اصابه. وسمع وهو على سرير الموت حكاياتنا عن النجاحات الاولى في فك رموز هذا الاثر الصغدي. فكان سروره لا يقل عن سرورنا، ورسم خطوطا لعمل المستقبل ولبعثات

المستقبل التي كان يعرف جيدا انه لن يكون له مكان فيها. لكنه كان يعمل طول حياته من اجل العلم ومن اجل تنظيمه. وكان من البديهي له استمرار تطور العلم وديمومته. ولذلك فانه هكذا بهدوء وببساطة ظل يتحدث عن المستقبل حتى فارق الحياة. ولهذا كان واجبنا نحوه اكثر من الآخرين هو ان نهدي اليه «المجموعة الصغدية» التي لم يقدر له ان يراها.

اما الثاني فهو ف. آ. روزنبرغ الذي امتد به الاجل ثلاثة شهور، وقد كان مدة طويلة خازن المتحف الاسيوي والزميل المخلص لاولدنبورغ في ادارة هذه المؤسسة التي كانت في وقت ما «المعهد» الوحيد للاستشراق في اكاديمية العلوم. وفي عشرات الاعوام الاخيرة من حياته، درس بنجاح كبير المواد الصغدية وفك باصرار، وتسلسل، رموز حطام المؤلفات، والمخطوطات الصغدية القليلة التي كانت مخزونة في مجموعاتنا. ولما كان يملك قاعدة صلبة في الدراسات الفارسية، فانه سرعان ما صار واحدا من اوائل العارفين في العالم بالكتابة الصغدية. الا ان دماغه قد تعب من مرضه الثقيل في اعوامه الاخيرة ولم يصدق كل الصدق ما سمعه من الحكايات عن تلك الاكتشافات المتميزة العظيمة. ولعله كان من الصعب عليه ان يتفهم انه حلل طول حياته القطع والنسخ الوحيدة، وانه قد اكتشفت الآن فجأة عدة عشرات من الوثائق

التي اضاءت بوضوح جوانب لم تكن معروفة من الثقافة الصغدية المقربة اليه. وكان يشعر بتشاؤم وبصفة خاصة نحو المخطوطات التي كتبت على «العصي» التي لم تكن معروفة لاي شخص من قبل ولعله كان يظن حتى آخر ايام حياته انه قد يكون هناك شيء مخفي من سوء الفهم. وكان من المهدى لنا نوعا، ذلك التأكيد غير المنتظر، للعظمة العلمية لهذا الاكتشاف، الذي بدا لهذا المتخصص شيئا مستحيلا لا يمكن تصديقه. وانني نفسي، كثيرا ما اتمنى ان توجد في آسيا الوسطى في اي وقت ولو وثيقة عربية اخرى مماثلة لهذه الرسالة الصغدية التي اشتهرت في العلم.

٣ ـ قرآن كوفي و«جدة عربية»
(١٩٣٦)

يمثل القرآن الكوفي من القرنين الهجريين الاول والثاني، شيئا نادرا جدا في مجموعات المخطوطات، وتعتبر النسخ الكاملة منه احادية في كل العالم. وكان زينة مكتبتنا العامة مدة طويلة، القرآن الذي يعرف بالعثماني او السمرقندي وقد حمل الى مدينتنا بأمر الجنرال فون كاوفمان كغنيمة حربية عند غزو آسيا الوسطى. ثم عاد من جديد الى آسيا الوسطى بعد ثورة اكتوبر. وبالطبع فانه لم يكن مطلقا في يد الخليفة عثمان في اللحظة التي

مات فيها، مثله كمثل توائمه التي عرف منها في العالم ما لا يقل من ثلاث او اربع نسخ. ولكنها تنسب كلها او ترجع الى القرن الاول الهجري. فان تلك النسخة الكاملة لم تبق في لينينغراد. وكان الامر هنا وفي البلاد الاخرى عادة، ان القرآن الكوفي في كل مكان، يتمثل في اوراق ناقصة من الرق يختلف عددها باختلاف الاماكن. بل ان مارسيل المشهور مؤسس المطبعة العربية في مصر وقت حملة نابوليون، والهاوي الكبير لفن الخطوط ولعلم تطور الخطوط الاثرية، لم يستطع ان يحمل معه (من مصر) الا اوراقا منفردة وقع جزء منها في مكتبتنا العامة. ولقد شكلت امريكا طيلة القرن الاخير وبفضل ملايينها، مجموعات في مجالات مختلفة، يكسف ضوؤها احيانا مجموعات العالم القديم. الا انها حتى الآن ليست اسعد من هذا العالم في المخطوطات الكوفية. وهي تقوم بنشاط بوصف وبحث الاوراق الجزئية المختلفة التي تقع لديها من وراء المحيط. الا ان مثل هذه الاوراق الكوفية لم تكن تظهر بصورة كثيرة.

ولذلك يصبح من المفهوم كيف خفق قلبي عندما وقع في يدي ذات مرة، في خريف ١٩٣٦، بضع عشرات من الاوراق الرقية الكبيرة الرائعة بخط كوفي قديم. وكانت سيدة مجهولة قد حملت هذه الاوراق الى معهد الاستشراق لتبيعها. وقالت انها كانت قبل ذلك في المكتبة

العامة، الا انهم هنا لم يقبلوا على شراء هذه الاوراق عندما عرفوا انها «قرآن» فمخطوط القرآن ليس نادرا. ولم يسعني الا الابتسام لدى سماعي هذا، فقد كان من الواضح لي انه لا يوجد عندنا في اي مكان حتى ولو ورقة او ورقتين بمثل شكل هذه الاوراق. في حين ان السيدة حملت الينا بضع عشرات منها. وكانت حالة الاوراق عظيمة ويتميز شكلها عما يقابلها من النماذج العادية المعروفة بأن طولها اكبر من عرضها على عكس النماذج العادية المعروفة. ويتميز الخط نفسه بميل عادي الى اليمين في اعلى الحروف يشير الى قدم ليس بالقليل. ولم اتكل على نفسي بل قمت فيما بعد بالتحقق من هذه الاوراق بطرق مختلفة. فتوجهت الى اثنين هما احسن العارفين عندنا بعلم تطور الخطوط الاثرية العربية. احدهما هو خازن قسم المخطوطات لمعهد الاستشراق والثاني هو استاذ تاريخ الفن الاسلامي في جامعتنا. توجهت الى كل منهما بطلب ابداء رأيهما في تاريخ هذه الاوراق. وبالطبع فانني اخفيت عن كليهما انني سأتوجه للآخر. واتفق جوابهما: فكلاهما اعتبر ان هذه الاوراق ترجع الى بداية القرن التاسع الميلادي او ربما الى نهاية القرن الثامن. ولم يكن عندي شك في ضرورة انقاذ هذا الاثر النادر؛ وانه لا يمكن ان يفلت هذا المخطوط من مجموعات الدولة.

اول سؤال يتولد عندما يبدأ المخطوط حياته الجديدة في المجموعة العلمية، هو عن تاريخ حياته والبيانات الخاصة به. ولم تكن ظاهرة على اوراقه اية ملاحظات او آثار لاصحابه السابقين، لكن هذا المخطوط لم يكن ليملكه اي صاحب طارئ يخزنه هكذا بعناية في حالة جيدة. وقد كانت الاوراق مختلطة بالطبع ولعلها نزعت من جلدها؛ الا انه لكي تمتلك ويحافظ عليها في الوقت القديم كان ينبغي ان يكون مالكها اما ذا معرفة او ذوق واما ان يكون نفسه عربيا حتى يقدر في هذه الاوراق آثاره القديمة. على ان محاولتي في ان اعرف من السيدة قصة المخطوط، اصطدمت مع رغبتها في اخفاء معالم آثاره. لكن هذا كان شيئا عاديا. فكثيرا ما يحدث ان عارضي المخطوطات او الكتب، للبيع، يخافون من مصادرتها، او من الكشف عن روابطهم بالملاك السابقين للمكتبات الكبيرة او من جلب النحس لانفسهم اذا كشفوا عن علاقتهم مع اية عائلة مشهورة قبل الثورة. وهذه السيدة سمت نفسها باسم روسي عادي الا انها قالت انه كانت لديهم منذ وقت بعيد جدة عربية توفيت لا تذكرها. وذكرت ايضا انه قد بقي من آثار جدتها، حقيبة بها بعض الاشياء القديمة التي رأت الآن ان تبيعها بسبب سفرها. وان هناك في الحقيبة بعض الكتب العربية والفرنسية. واردت ان امسك بهذا الخيط. فسألتها عما

اذا كان من الممكن ارسال مستخدمنا من اجل رؤية هذه الاشياء فقد يوجد هناك اي شيء آخر مهم او ممتع بالنسبة لنا. لكن السيدة قالت بسرعة وبخوف ان الشقة لديهم غير مرتبة كثيرا، وانهم سيقومون بأنفسهم بالفحص ثم يحضرون ما يجدونه. واضافت الى الاجابة على سؤالي لحسن الحظ قائلة انه يبدو انه توجد في الحقيبة اوراق اخرى مشابهة لهذه الاوراق. ووعدتني بأن تحضرها لانني قلت لها ان ذلك يرفع من ثمن هذه الاوراق. ولم يسعني آنذاك الا ان اطيعها لا سيما انها لم تذكر لي عنوانها. وبقيت الاوراق التي كانت معها عندنا. وكان هذا ممتعا لي. على انني كنت اشك في قصتها عن الجدة العربية، التاسع عشر امرأة عربية تزوجت روسيا ثم يظهر انها مالكة امية في احد الضواحي الشرقية بقرطبة مائة وسبعون امرأة شهرن بخطهن الجميل في نسخ القرآن اما ان توجد في القرن التاسع عشر امرأة عربية تزوجت روسيا ثم يظهر انها مالكة لهذه النسخة النادرة فانه كان شيئا مشكوكا فيه بالنسبة لي.

على ان السيدة ظهرت من جديد، بعد اسبوع ونصف. وكان مدعاة لسروري انها حملت مرة اخرى بعض اوراق القرآن. وبهذا جمع لدينا ما يقرب من ربع نسخة كاملة لا يوجد مثله في اي مكان في لينينغراد. وبناء على قول السيدة لا توجد هناك اوراق اخرى اكثر من ذلك. وحملت ايضا بعض الكتب. وظهر ان ما هو بالفرنسية من هذه

الكتب هي كتب عادية لقراءة التسلية، وهي حقا ذات تجليد حسن. وان ما هو منها باللغة العربية هي كتب الفقه الاسلامي العادية المطبوعة في الشرق. وهذه الكتب لا يمكن مطلقا ان تثير اهتمام اي «جدة» حتى ولو كانت عربية.

ومن جديد فكرت في المالك السابق لهذا القرآن الكوفي، وفجأة عندما قلبت في يدي آليا احد الكتب التي حملتها، رأيت على كعب الغلاف حرفين فرنسيين اعرفهما جيدا، هما «ا. ن.» ولم اظهر للسيدة انني فهمت اسم المالك وواصلت الحوار معها قائلا: «يعني ان القرآن ايضا من مكتبة ايريني غيورغييفيتش نوفل؟» فهمست خائفة وقد امتقع لونها: «من اين عرفتم؟» فاوضحت لها بصراحة حقيقة الامر وكيف حللت اللغز. لكنها لم تبد صراحة اكبر. وانتظرت بمشقة تسلم النقود التي وعدتها بها، وانصرفت بسرعة خائفة كما لو كان احد سيقبض عليها. ولم ادر ما اذا كانت قد سافرت حقيقة ام استمر يؤلمها الخوف من كشفي عن اسم ايريني نوفل — وعلى كل حال فلم تظهر السيدة في المعهد بعد ذلك.

لكني لم اقل اي شيء مخيف. وايريني (او بالعربي سليم) نوفل كان خلال مدة طويلة استاذا للغة العربية والفقه الاسلامي في القسم التعليمي للغات الشرقية بوزارة الخارجية الروسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وهو كغالبية المعلمين هناك شعر بأنه مستخدم اداري او ديبلوماسي اكثر من كونه عالما، لكنه كان ديبلوماسيا لامعا من الناحية الظاهرية، ومثل وزارة الخارجية مرارا بل واحيانا مثل الحكومة الروسية في المؤتمرات العالمية للمستشرقين. وهو ينتسب الى عائلة عربية مسيحية مشهورة في طرابلس الشام. وكان يتكلم الفرنسية بطلاقة. وفي وطنه، في سنوات شبابه، استطاع ككثير من العرب المساوين له من حيث وضعهم في المجتمع ان يقسم وقته بين التجارة، وتمثيل الدول الاجنبية، وبين الاشتغال بالادب الذي كان نوعا ما في مرحلة من النهضة في منتصف ذلك القرن. وقد كتب بعض المؤلفات والكتب التي لقيت نجاحا. ووجهت اليه وزارة الخارجية الروسية اهتمامها. وكان الشيخ الطنطاوي يدرس في القسم التعليمي لوزارة الخارجية، فلما مرض مرضا لا امل بشفائه، دعت الوزارة نوفل لان يشغل مكانه، ووصل الى روسيا حوالي عام ١٨٦٠، وصار روسيا لدرجة ان اولاده الذين لم يكونوا مطلقا في وطن ابيهم، نسوا اللغة العربية.

وهو نفسه انصرف عن الاشتغال بالادب لكنه نشر بعض الكتب في الفقه الاسلامي باللغة الفرنسية. لكنها لم تكن كتبا علمية بل اقرب الى الكتب السياسية التي تحمل ظل ظله. فقد كان نوفل كالكثير من العرب المسيحيين لا يميل الى الاسلام. وسمح مرارا لنفسه في كتبه بالنيل من الرسول محمد ومن الاسلام. وقد احتج السفير التركي على

ذلك وطلب مصادرة كتبه. وقد حقق لنفسه في وزارة الخارجية الروسية درجة كبيرة من الوظيفة، وتسلم كثيرا من الرتب والاوسمة.

وكان قد بقي لديه بقية من الذوق الادبي. وكانت مكتبته جيدة في وقت ما ولم تكن تحوي الكتب فحسب بل والمخطوطات ايضا. وكانت منظمة كما يبدو من رموز كتبه التي كانت دائما ذات طابع موحد. وكان نصيب المكتبة لسوء الحظ مؤسفا. فاولاده نصف الروسيين ونصف الفرنسيين كانوا قد تلقوا تعليمهم في المدارس الخاصة باولاد كبار الشخصيات. وكانوا من اولئك الاولاد «ذوي الملاعق الذهبية» الذين كانوا معروفين آنذاك. ولم يكونوا يهتمون لا بالعلم ولا بالادب. ولم يبلغوا اية وظائف عالية. وعاشوا فقط على اموال ابيهم. وانتهى بهم الامر تدريجيا الى انهم انتهزوا فرصة شيخوخة والدهم فاخذوا يبيعون الكتب المختلفة، سرا، الى تجار الكتب القديمة. وبعد موت ابيهم صارت المكتبة هباء منثورا. ونادرا وعلى نحو غير متوقع، كانت بعض الكتب تظهر في مخازن الكتب في شارع «ليتيني» او في سوق الكسندروفسكي. وكانت احيانا محتويات هذه الكتب غير عادية سواء كانت بالفرنسية او العربية. وكانت هذه الكتب باغلفة انيقة تحمل على كعبها الحرفين «ا. ن.» وبرموز مكتبية متماثلة على الاغلفة الداخلية لها. وهذه الكتب تتحدث عن صاحبها السابق الذي كان في وقته هاويا

للكتب، والذي خزن بعناية ذلك القرآن الكوفي النادر. ولعل هذا القرآن لم يحفظ كاملا بجريرة اولاده ايضا.

ولعل حفيدته لم ترد ان تتذكر مساوئ والدها التي قد تكون معروفة لها. او لعلها خافت ان نكشف عن جدها الذي كان مستخدما كبيرا في وزارة الخارجية في زمن القيصرية. وبسبب هذا استبدلت «الجد العربي» «بالجدة العربية». ومن الصعب القول اي من هذين الاحتمالين هو الاصح. على ان من الخير على كل حال ان اغتنت مجموعاتنا بهذا القرآن الكوفي النادر بفضل هذه الحفيدة.

على ان الحرفين «ا. ن.» حملا قلبي على الخفقان مرة اخرى وفي موقف آخر عندما رأيتهما على كعب كتاب «وصف الروسيا» وهو المسودة التي كتبها بخطه الشيخ الطنطاوي الذي كان سلفا لنوفل في التدريس بالقسم التعليمي للغات الشرقية. وبعد اعوام كثيرة عرفت، مصادفة، ان تخميني كان مضبوطا واننا اشترينا القرآن الكوفي حقيقة من حفيدة نوفل.

٤ ـ المراقب الملازم لشامل في كالوغا (١٩٢٨ـ١٩٤١)

ان تاريخ استعرابنا معروف معرفة رديئة لدى المتخصصين، وغير معروف اطلاقا في الدوائر العلمية الواسعة، او فيما وراء حدود بلادنا، في حين ان لهذا التاريخ معالم

ولحظات ممتعة ليست بالقليلة اعطته احيانا شكله الخاص واصالته التي لا يوجد لها مثيل في الغرب. وينبغي ان لا يغيب عن البال ان استعرابنا العلمي احدث من الاستعراب الغربي بقرنين وان كثيرا من جوانبه انفتحت في الفترات الاخيرة، وكثيرا ما كان انفتاحها مصادفة تماما.

ونحن لا نعرف حتى الآن الا معرفة رديئة جدا المستعربين من الاوساط العسكرية مع انهم كانوا موجودين دون شك، ولا يجوز اعتبارهم جميعا مجموعة من المترجمين في النواحي العملية. وبالطبع فان وطننا كان يشعر دائما بقلة العلاقات المباشرة مع البلاد العربية، ولم ينشأ من الكتاب او السياسيين مثل لورنس او فيلبي. لكن علاقاتنا مع الشعوب التي استوعبت الثقافة العربية كانت قوية. فكانت هذه الشعوب في كثير من الاحوال جيرانا لنا وكانت احيانا ضمن حدود بلادنا ودولتنا. وقد ساعدت آسيا الوسطى على خلق مستشرق عظيم من «الكابتن تومانسكي» الذي احتفظ بهذا اللقب عندنا في الاوساط المختلفة وفي الشرق، مع انه مات جنرالا. وان اهتمامه بدراسة تراث البابيين قد جعل منه بالتدريج مستعربا جديا، واستطاع ان ينشر «كتابهم المقدس» الاساسي المؤلف باللغة العربية. ولقد توطد اسمه في العلم الى الابد بكتاب لمؤلف مجهول وهذا الكتاب المعروف باسم «مجهول تومانسكي» هو مخطوط بالفارسية يعكس بوضوح تطور علم الجغرافيا

العربي في القرنين التاسع والعاشر. وكان تومانسكي هو الذي اكتشفه.

وحتى الآن لم يوضح تاريخ استعرابنا تماما تلك الصورة التي كان مهادها اللغة العربية في شمال القفقاس اي في داغستان وتشيتشينيا وانغوشيتيا. فقد كانت اللغة العربية هناك طيلة عدة قرون هي اللغة الفصحى الوحيدة لا للعلم فحسب بل لعلاقات الاعمال ايضا. وبهذه اللغة تطور تراث له معالمه الخاصة، خلق رجال الشريعة المحليين، والمؤرخين والشعراء. وتولد هناك ادب كبير باللغة العربية الفصحى التي كانت تستعمل كوسيلة حية للعلاقات بين القبائل. ان مستعربي القرن التاسع عشر لم يتحدثوا مطلقا بجدية عن هذه الصورة الممتعة والعظيمة في بابها. ولعلها ظلت مخفية عني ايضا لو لم تحملني المخطوطات على التفكير فيها.

ففي نهاية العقد الثالث من هذا القرن اشتريت بالمصادفة مخطوطا لترجمة للقرآن من احد الشخصيات غير المعروفة لدي. وينتسب المخطوط بملاحظاته الى «الجنرال د. ن. بوغوسلافسكي»، كما يشير اليه الغلاف الازرق للمخطوط. وهذا الاسم لم يوح الي باي شيء آنذاك. بل انني لم استطع ان اخمن على الفور ان الاختصار الحرفي لكلمة «جنرال» المكتوب على الغلاف يعني هذه الرتبة العسكرية بالضبط، وكان من الصعب علي ان اتصور ان

هذا العمل الجدي المعقد يرجع الى رجل عسكري المهنة. والانطباع الذي اثاره المخطوط باجمعه، هو انه «مبيضة» كتبها المترجم بخط يده. والاوراق التي كتب عليها هي من نوع جيد ذات حجم كبير. والمقدمة مؤرخة في عام ١٨٧١ وتشير الى ان المؤلف زار استانبول. على ان النظرة العاجلة في المخطوط، والاستيضاحات المختلفة الطارئة مرتبطة مع اشتغالي بالقرآن، سرعان ما اقنعتني بأن الترجمة تمت على اساس الاصل العربي وبان المترجم مستعرب واسع الاطلاع. لكن من هو؟ هذا ما لم افكر فيه بسبب انشغالي باعمال اخرى في ذلك الوقت. ثم فتحت لي الصدفة الثانية عن هذا دون انتظار. وعلى الفور دخل هذا الموضوع الى دائرة اهتماماتي العلمية الحديثة.

ففي بداية القرن العشرين، في شارع بتروزافودسكايا من حي المدينة البتروغرادي، غير بعيد عن شارع غيسليروفسكي، كان يقوم منزل ليس بالضخم، مبني من الحجر، ذو ثلاثة طوابق، وبشكل مقبض نوعا ما. ولم يكن المبنى يتميز عن باقي البيوت المجاورة باى شيء خاص به من ناحية الشكل الخارجي. بل لم تكن له، اذا صح القول، اية ناحية من فن العمارة. وكان الجيران يعرفون ان هذا البيت يقطنه صاحبه نفسه مع اسرته. ولم يكن احد من الجيران بل والقليلون في مدينة بطرسبورغ كلها من كان يظن ان كل البيت، عدا بعض الحجرات السكنية، ممتلئ

بالمجموعات العلمية النادرة، وان المنزل يمثل متحفا كبيرا له شكله الخاص. ولقد ذكر العارفون من الناس ان مالك المنزل قد انفق على جمع هذه المجموعات تركتين كبيرتين ورثهما بالاضافة الى حالته المالية الممتازة التي تزعزعت الآن. وكان من الصعب ان يحدد بكلمة واحدة طابع هذا المتحف الذي يعكس بوضوح ذوقا واهتماما واسعا. بل ويعكس في الوقت نفسه حقيقة النظام والترتيب الذي يتمتع بهما صاحب هذه المجموعات. وكان المؤرخ الروسي بحسب تخصصه المهني عارفا كبيرا في الوقت نفسه بالثقافة البيزنطية ومتخصصا كبيرا جدا في المواد الثانوية للتاريخ. وكان هذا المتحف يعكس جيدا تلك الآفاق الواسعة والمعارف الدقيقة الخبيرة لصاحب هذه المجموعات الذي يعرف جيدا تجار الآثار القديمة المشهورين في العالم. ولذلك فانه فيما بعد عندما انضم المتحف الى اكاديمية العلوم كان من الصعب ايجاد تسمية صحيحة تليق بالمتحف. فسمي اولا «متحف علم تطور الخطوط الاثرية» ثم بعد ذلك «معهد الكتاب، والوثيقة، والرسالة»، وفي آخر الامر تفرقت مجموعات المتحف بين مختلف مجموعات اكاديمية العلوم وغيرها من المؤسسات. اما الوحدة الحقيقية للمتحف فقد كانت موجودة فقط بفضل شخصية صاحبها الذي كانت له اهتمامات عديدة لن تتكرر بمثل هذه الصورة من اتساع الافق.

ولقد كان المستشرق والمستغرب، بصرف النظر عن اختصاصهما، يجد كل منهما لنفسه مادة علمية في ذلك المتحف الممتع، الموجود بدون لافتة في شارع بتروزافودسكايا. وكم هناك من اشياء فريدة! لوحات بابلية قديمة ومراسيم بابا روما، وشاهدات قبور عربية من القرون الاولى للاسلام ووثائق بيزنطية، ومراسيم مدينة كريمونا الايطالية، واوراق بردي عربية من مصر... ولم يكن المستعرب وحده هو الذي تزوغ عيناه، والحال ان صاحب المتحف السخي كان يعرف كيف يجذبهم بثروته العلمية التي كانت احيانا ذات طابع غير منتظر اطلاقا.

وفي بداية الحرب العالمية الاولى شغفت بدراسة الجزء الذي كان في المتحف من محفوظات السائح الايطالي المشهور في بداية القرن السابع عشر بيترو ديلاّ فاله. وفي هذه المحفوظات وجدت رسائل عربية من اهل عشيرة زوجته التي ولدت فيما بين النهرين بالعراق. وهذه الرسائل هي آثار ممتعة جدا عن ادب الرسائل العربية في ذلك الوقت. وهي مهمة جدا لتاريخ علم اللهجات العربية، ولتاريخ حياة احد الانسانيين ورائد الاستشراق الايطالي. وكان يلزمني لفهم هذه الرسائل بعض استفسارات في المحفوظات الايطالية. وكان من الصعب الحصول على هذه الاستفسارات بسبب فترات انقطاع العلاقات مع ايطاليا. وقد بقيت كل هذه المواد جميعها غير منشورة حتى الآن. ولحسن

الحظ لم تنشأ مثل هذه الصعوبات في الحالات الاخرى. ومن هذه المجموعات صدرت تلك التعويذة من جنوب الجزيرة العربية، وتلك اللوحة النحاسية المغربية، وخرجت طبعة ضخمة عن صور شاهدات القبور العربية، ووضعت دراسات اوراق البردي العربية على ارض ثابتة.

على ان مجموعات المتحف التي جمعت في وقت ما من كل انحاء العالم في منزل في شارع بتروزافودسكايا، تحتوي على كثير من الكنوز العلمية غير المعروفة لدى المستعرب.

وذات مرة، سنة ١٩٣٢، عندما كنت انظر في فهرس معهد الكتاب والوثيقة والرسالة، وجهت اهتمامي الى رسالة لشامل مشار اليها في الفهرس. وقد ظهر ان هذه الرسالة هي حقيقة بامضاء شامل نفسه بل لعله كتبها كلها بخط يده باللغة العربية بالطبع في السنوات الاخيرة من وجوده في روسيا قبل سفره الى جزيرة العرب بوقت قليل. والرسالة معنونة باسم «الامير الجنرال بوغوسلافسكي». وهنا تذكرت على الفور مترجم القرآن. ومع انه توجد هنا كلمة «الامير» الا ان الاسم بدون شك هو لشخص واحد. ذلك لان لقب «الامير» كان يعتبره سكان القفقاس عائدا لجميع العسكريين او المدنيين الكبار. واحسست بانني لن افلت من القدر هذه المرة وانه يجب علي ان اعمل على توضيح هذه الشخصية التي حملتني المخطوطات على الالتقاء بها للمرة الثانية.

وقد ظهر ان هذا ليس بالامر الصعب. فقد وقع في يدي خيط اريادنا ثم اخذت الامور بعد ذلك تسير من تلقاء نفسها، واستسلمت «الوحوش» للصيد، جماعات. وابتدأت التوضيحات تظهر من كلا الجانبين العربي، والروسي. فقد وجد في المتحف الاسيوي مخطوط بخط صهر شامل عن ذكريات اقامتهما في روسيا. وقد اثنى مؤلف المخطوط بحرارة بالغة على الكولونيل بوغوسلافسكي الذي كان يعرف اللغة العربية، فعين مراقبا ملازما لشامل في بطرسبورغ، وفي الفترات الاولى من وجودهم في كالوغا. وقد اكدت الوثائق الروسية انه كان اول مراقب ملازم لشامل، ثم حل محله بعد ذلك كل من رونوفسكي وبرجيتسلافسكي. وكان هذان الاخيران معروفين في الادب، بحكم انه قد طبع لهما كثير من ذكرياتهما ومقالاتهما عن شامل، وبخاصة عن حياته في روسيا. هذا في حين ان بوغوسلافسكي لم يكتب اي شيء تقريبا عن حياة شامل ولعل ذلك يرجع الى اسباب خاصة لديه. وكان هذا مما يدعو الى الاسف، ذلك لان جميع المواد العربية التي ترتبط بشامل تمدح بوغوسلافسكي دائما باحسن النغمات.

ولعل ميل بوغوسلافسكي الى الايجاز كان سببا في قلة المعلومات المطبوعة عنه. وكان لبوغوسلافسكي بثقافته الاستشراقية ارتباط ما مع جامعة بطرسبورغ. وفيما بعد، اشار عميد كلية اللغات الشرقية المعروف في ذلك الوقت،

كاظم بك، اشار في احدى مقالاته عن بعض المسائل الاستشراقية الى بوغوسلافسكي، كمثال على ما يستطيع ان يحصله المستمع الحر – لا الطالب – من الاستفادة من محاضرات الجامعة. وعندما كتبت هذه المقالة كان بوغوسلافسكي يعمل في سفارتنا بالقسطنطينية. وظهرت مصادفة جديدة سمحت بالافتراض بأن اهتمامات بوغوسلافسكي، خرجت في تلك الفترة بعيدا عن نطاق وظيفته كملحق عسكري عادي. ففي احدى مكتبات لينينغراد توجد نسخة ممتعة من ديوان اشعار الصحفي العربي الذي كان لاجئا في روسيا، رزق الله حسون مترجم كريلوف. وكانت هذه النسخة مهداة من المؤلف الى بوغوسلافسكي مع اهداء شعري مؤثر جدا، يتضمن تلميحات للمساعدة التي ابداها له. والغالب ان بوغوسلافسكي ساعده في هربه من تركيا الى روسيا.

وهناك في القسطنطينية اتم بوغوسلافسكي ترجمة القرآن التي وقعت في يدي. وهي عمل يعطي كل الحق لهذا الجنرال في ان يحتل مكانا في تاريخ استعرابنا. وطيلة القرنين التاسع عشر والعشرين كانت هذه هي المرة الثانية فقط التي ترجم فيها القرآن الى الروسية من الاصل العربي. وتدل الظواهر على ان هذه الترجمة كانت معدة للنشر. واذا كانت قد بقيت غير منشورة – فلعل السبب في ذلك يرجع الى انه اتفق في ذلك الوقت، وفي العقد

الثامن من القرن الماضي، ان ظهرت في مدينة قازان ترجمة سابلوكوف الذي كان في وقت ما معلما لتشيرنيشيفسكي* في مدينة ساراتوف. ويمكن القول بأن الترجمة كانت مهنة لسابلوكوف وانه اعطي من حياته لهذا العمل عشرات السنين. اما الشيء الممتع فهو انه في نهاية العقد العاشر عندما سلمت ارملة بوغوسلافسكي ترجمته الى اكاديمية العلوم، اشار المستعرب الكبير روزن في تقريظه الذي اكتشف في محفوظاته، الى ان هذه الترجمة لا تقل في قيمتها عن ترجمة سابلوكوف. ومثل هذا التقييم من جانب هذا المستعرب العظيم كبير الدلالة. واذا نحن وزنا جميع الظروف الخاصة بتطور ثقافتنا في منتصف القرن التاسع عشر فمن الممكن ان يؤدي ذلك الى الاعتراف بأن رفع هذا الجنرال الى مثل هذه الدرجة من العلم كان اصعب من رفع سابلوكوف الاستاذ بالاكاديمية الروحية.

لست اعرف ما اذا كان يوجد من الجيل التالي لبوغوسلافسكي اي تلميذ او متبع من بين اولئك الذين عرفوه، واستطاعوا ان ينفذوا مباشرة الى استيعاب اهتماماته. الا انه بالنسبة لي، فان معرفتي بشخصيته كشفت لي تدريجيا وعلى نحو غير ملحوظ عن صورة لم تكن مرئية من قبل قط، هي صورة الادب العربي في

* من اعظم الديموقراطيين الثوريين الروس وكاتب وعالم ناقد. (١٨٢٨-١٨٨٩).

القفقاس. وكما حدث مرارا فقد توافرت لدي، تركيز الافكار على موضوع جديد، المواد العلمية الى حد لم يعد معه من داع للبحث عنها خصيصا، بل جاءت المواد بلفسها الى يدي. ولقد اندهشت، عفويا، كيف لم يستطع احد ملاحظة هذه المواد من قبل. ان خطاب شامل الى بوغوسلافسكي جذب معه بعض الآثار المماثلة الخاصة بأدب الاتصال والرسائل. فقد ادت الترجمات الضعيفة لبعض المترجمين الطارئين الى معرفة الاصول التي اكتشفت تدريجيا. وفي هذه الاصول، معالم خاصة للاشكال المختلفة للحروف العربية، التي كانت لها احيانا علامات تشكيل لا تجدها في اي مكان آخر. وكان هذا يقف احيانا للوهلة الاولى كسد مانع لفهمها. على ان الوثائق المختلفة كثيرا ما احيت اشياء غريبة. ومن هذه الوثائق امر شامل المكتوب على ورق شجرة الزان الذي اكتشف في متحف مدينة روستوف. وهناك في المتحف الاسيوي، ظهر مخطوط، كان موجودا فيه منذ وقت بعيد ومكتوب بخط صهر شامل عن ذكريات حياتهما في روسيا. وقد اظهر هذا المخطوط مرة اخرى، كيف انه يجب النظر باحتراس، حتى الى ترجمات رونوفسكي المراقب الملازم لشامل، التي اعتبرت مصدرا تاريخيا موثوقا. وفي تركة احد اساتذة كلية اللغات الشرقية، عثر على نسخة مفحوصة من قبل الرقابة؛ وهذه النسخة هي عن تاريخ شامل، وكان قد الفها احد

امنائه الاقربين. وهي في آخر صورة لها، تتناول حتى السنين الاولى من القرن العشرين.

ان المهارة في استعمال اللغة العربية، تتحدث عن الحيوية العظيمة لهذا التراث العربي في القفقاس فيما بعد ايضا. ففي العقد الثالث من القرن العشرين، ارسل اثنان من القفقاسيين من الاينغوش لاكمال تعليمهما في معهد لينينغراد للغات الشرقية. وكانا لا يعرفان الا لغتين: لغتهما الوطنية واللغة العربية. وكانا يتحادثان باللغة العربية بطلاقة نامة، في مختلف الموضوعات عن السياسة العالمية والحياة المعاصرة. بل ان احدهما كان ينظم بسهولة، اشعارا عربية على اساس اصول وقوانين الشعر العربي القديمة. وفي العقد الرابع من هذا القرن ارسلت الي من شمال القفقاس مجموعة اشعار عربية لشعراء الفترة الاخيرة. وقد بلغ بي الامر، من شدة المفاجآت في اولى اللحظات، انني ظننت ان في الامر «مقلبا» مدبرا. ذلك لانني ذهلت من المعرفة الواثقة لكل اشكال والوان الشعر العربي القديم في هذه المجموعة. لكن لم تكن هناك اية «مقالب». فان قوة تيار التراث العربي القديم في القفقاس، استطاعت ان تحمل حتى ايامنا، اللغة العربية الفصحى التي لا تستخدم في التخاطب العام في موطنها في البلاد العربية. اما في شمال القفقاس فقد عاشت اللغة العربية حياة كاملة، لا في الكتابة فحسب، بل وفي الحديث ايضا.

وقد صبت عندي مواد هذا التراث، واتسعت صورته، واكتشفت بالتدريج منابعه التي تأخذنا احيانا بعيدا وراء حدود تركيا، لا الى سوريا ومصر فحسب، وانما ايضا الى المملكة العربية السعودية واليمن. وقد قرأت بانفعال كبير قصة احد اليمنيين من القرن الثامن عشر الذي سمع في وطنه في صنعاء احد الداغستانيين الذي رحل الى هناك والذي كان يتكلم بلسان عربي رائع الى درجة ان «ارتعد جسم» هذا اليمني على حد تعبيره. وها هو الآن بعد قول هذا العربي الخالص في عروبته، صار من الواضح لي ذلك الانطباع الاول الذي اثارته لدي آثار الادب العربي في القفقاس او الذي اثاره لدي ذلك الحوار العربي مع القفقاسيين اللذين ظهرا بالمصادفة في لينينغراد.

وارتسم عالم جديد امامي، وانفتح امتداد تطور خاص كما لو كان فرعا جانبيا من الادب العربي، والذي كان من الصعب ان نجد مقارنا له. ولقد كانت آثار هذا الادب اكثر تنوعا مما كان يبدو للوهلة الاولى، وكانت مهمة لا للتاريخ المحلي في القفقاس فحسب وانما للاستعراب ايضا، وللتاريخ العام للادب العربي. وقد وجدت هذه الآثار الادبية في القفقاس قريبة منا جدا، وكان ما يدعو الى العجب الشديد، هو ان الاستعراب الجامعي لم ينبس ببنت شفة عن هذه الآثار طيلة كل القرن التاسع عشر. ان علمنا الاستعرابي ما زال ناشئا تماما، ولم يتمكن بعد من الاحاطة

بكل المجالات. لكن لعله لم يوجه اهتمامه نحو القفقاس تحت تأثير المزاج النفسي الذي يتردد مرارا، بل وفي العلم ايضا، وهو «ان الشيء القريب غير ممتع». فلم يقف ملاصقا للادب العربي في القفقاس الا المستعربون المترجمون من العسكريين. وان شخصية اول مراقب ملازم لشامل لتتميز من بينهم، وقد احتلت مكانها في تاريخ علم الاستعراب. ومع مرور الوقت، حين سيجد فصل الادب العربي بالقفقاس مكانه الذي يستحقه في التاريخ العام للادب العربي، ينبغي لنا الا ننسى ان المخطوطات المرتبطة باسم الجنرال بوغوسلافسكي هي التي اعطت اول دفعة في جيلنا نحو التعرف الى هذا الادب.

٧. ظل الأجداد

١ ـ «صريع الادب العربي»

(١٩١٠)

في الادب العربي، كثير من الكتب التي تتعلق بالعشق والعشاق. وهذه الكتب مبنية على اسس مختلفة. فبعضها منثور وبعضها منظوم؛ الا انها تزخر بمختلف الوان المشاعر الانسانية. وتبدأ هذه المختارات بالقصص عن العذريين، قبيلة بنى عذرة، الذين «صرعهم الحب». وعن هذا تحدث كل من الشاعر الالماني هنريخ هاينه في اشعاره والموسيقي الروسي روبنشتين في موسيقاه. وفي هذه المختارات الى جانب ذلك بعض الفصول التي يمكن ان نضمنها الآن في مقالة عن الشواذ او حتى الامراض النفسية.

يمكن غالبا العثور في هذه المختارات على فصل عن اولئك الذين وقعوا في هوى المحبوب من صورته. وقد اثار هذا الموضوع كثيرا من المؤلفات في الادب العالمي، بعضها بليغ وبعضها عادي. وهذا الشعور العاطفي الذي تولد عن الصورة المنقولة من الاصل، معروف جيدا لدى،

جميع المشتغلين بالمخطوطات، اذ غالبا ما يحدث في جيلنا ان يعمل الانسان على صورة شمسية من المخطوطات. وهذا ما لم يعرفه اجدادنا. فقد كانوا يعملون دائما على اصول المخطوطات او على نسخ منها مكتوبة باليد. ولكن هذه النسخ لم يكن في وسعها، حتى مع مهارة نساخها، ان تعكس التفصيلات الكثيرة. وعبر هذه النسخ كان يمكن الدخول الى المضمون فقط، دون الشعور «بحيوية» المخطوط وبذاتية خطوطه، التي لا توجد الا في الاصل. وبالطبع فان الصورة الشمسية للمخطوط ايضا، تترك العالم لا حول له ولا قوة امام المسائل المعقدة الخاصة بتحليل كتابة المخطوط. لكن كما ان صورة الانسان السالف منذ زمن بعيد، تعطي امكانية للشعور به، فان الصورة الشمسية للمخطوط، تعطي امكانية لتصور من كتب اصله. ومع ان الصورة الشمسية تسجيلية، وبدون حيوية، وعلى مادة اخرى، وبالوان اخرى، الا انها ادق بدرجة لا تقارن من يد الانسان، مهما بلغت من المهارة؛ فهي تعكس جميع الملاحظات، والتصحيحات. ولا يندر ان تظهر بوضوح عبر هذه الوثيقة «الثانوية» شخصية من اشتغل على المخطوط نفسه، وشخصية من درسه، شخصية لم يرها ذلك الخلف العجول بوضوح عندما امسك في يده بهذا الاثر العلمي.

في فترة آخر شتاء لي في بيروت في ١٩٠٩ــ١٩١٠، انتهى معلمي الاستاذ العربي لويس شيخو من عمله مدة

سنوات طويلة على نشر ديوان اشعار من القرن التاسع للبحتري. وكان هذا الديوان مجموعة اشعار من نوع آخر. فهو لا يتناول العشق والعشاق انما يتناول جزء منه اشعار «الحماسة» التي اخذ منها الديوان اسمه، والتي تتشابه مع اشعار معاصره ومنافسه ابي تمام، ويتناول الآخر شتى المبادئ الخلقية التي تصور بوضوح المثل العليا للعصور الاولى لازدهار الثقافة العربية.

وكان مصير هذه المجموعة غريبا. فلسبب ما لم تتمتع عند العرب بشعبية وشهرة. ولم يعرفها الا القليل منهم. بل ان عبد القادر البغدادي (في القرن السابع عشر) الشارح المفسر المدقق الذي امضى الجزء الاكبر من حياته في القاهرة، وزار ادرنة واستانبول، والذي تتضمن مجموعته الضخمة «خزانة الادب» كثيرا من الاقتباسات من المؤلفات المفقودة وهو ما لا يقدر بثمن بالنسبة لنا، قد اعترف، مع كل هذا، بأنه لم يسمع بديوان «الحماسة» للبحتري. على ان الاقدار قد سخرت منه. ففي القرن السابع عشر نفسه، ابتدأ «الفرنجة» يحتكون عن كثب بخزائن الآداب الشرقية وبدأوا بانتظام في جمع المخطوطات. وكان من بينهم الممثل الديبلوماسي الهولندي في تركيا، الخريج الجديد من مدرسة المستعربين المعروفة في ليدن والذي اهدى جامعته العزيزة «مجموعة وارنر» «Legatum Warnerianum» وهي مجموعة مخطوطات غنية كان من بينها مخطوط

ديوان «الحماسة» الذي حمله من استانبول. وهذا المخطوط يعتبر فريدا حتى ايامنا هذه. وعلى اساسه اعد شيخو نشره للمخطوط. وكان قد قام بنسخ صورة خطية لنفسه من المخطوط في ليدن في العقد العاشر من القرن الماضي.

وكنت في ذلك الوقت التقي معه كل يوم تقريبا في المحاضرات او في المكتبة الشرقية المريحة في جامعة القديس يوسف. وكنت على معرفة بسير العمل في المخطوط. واحيانا كنت انظر نسخ تجارب الطبع. وعند الوداع اعطاني شيخو بعض الملازم المطبوعة، واستطعت ان ادرسها وانا على الباخرة في طريقي الى اوديسا. وكانت الطبعة قد اعدت كلها بعد ان رجعت الى روسيا في النصف الثاني من عام ١٩١٠. وقبل ذلك بقليل كانت قد ظهرت في ليدن طبعة فوتوغرافية رائعة للمخطوط الفريد. وهكذا اصبح لدي امكانية لان اتمثل الاصل الجميل لطبعة بيروت، وان اتحقق من صحة هذه الطبعة عند اللزوم بطريقة مضبوطة تماما.

وعندما كنت غارقا في ديوان «الحماسة» تحت تأثير انطباع حي من دراساتي اللبنانية القريبة العهد، فانني سرعان ما لاحظت ان على هامش المخطوط، كثيرا من الملاحظات التي كتبت بيد اخرى غير التي كتب بها الاصل. وغالبية هذه الملاحظات باللغة العربية. لكن بينها ملاحظات

باللغة اللاتينية، ترجع بحسب رأيي الى الشخصية نفسها التي كتبت الملاحظات العربية. وقد ادهشني ان كلا من الناشر البيروتي والناشر الليدني لم يوجه اي اهتمام الى هذه الملاحظات. فقد اعتبرها شيخو ملاحظات عادية اما لنساخ شرقي او لقارئ ما. وعلى هذا استخدمها شيخو آليا في فحص النص ونقده. غير ان شيخو لم يلتفت الى سمات الخط الاوروبي الذي كتبت به هذه الملاحظات كما لم يلتفت الى الملاحظات اللاتينية. ولم يشر محرر طبعة ليدن الى هذه الملاحظات ايضا. لكن لا يمكن ان يكون كاتب هذه الملاحظات قارئا عاديا بسيطا. ففي اغلب الاحوال كانت هذه الملاحظات تصحيحات سليمة للنص، وكثيرا ما كانت الملاحظات ايضا صورا نصية مباينة من مصادر اخرى. وقد اشير، عادة، الى هذه الصور المباينة في الاقتباسات الموجودة باللغة اللاتينية. ومن هذه الملاحظات امكن الاحساس بسهولة بأن مؤلفها كان على معرفة بكل ما طبع من المخطوطات حتى منتصف القرن الثامن عشر، وبما يوجد في مجموعة مخطوطات ليدن، وهو امر من السهل التحقق منه حاليا بفضل المطبوعات التي ظهرت طيلة القرنين الاخيرين. واذن فلا يمكن ان يكون صاحب هذه الملاحظات الا عارفا كبيرا ذا معرفة واسعة وذاكرة عظيمة. وهذه الملاحظات تتحدث عن اهتدائه بطلاقة الى الطريق، وسط الف ونصف من القطع

الشعرية ـ القصيرة عادة الموجودة في ديوان «الحماسة» وذلك دون ان يستعين بالمصادر الميسرة لنا من الفهارس او الدلائل.

فمن ترى يكون صاحب هذه الملاحظات؟ أهو وارنر صاحب مجموعة المخطوطات نفسه؟ لكن الاقتباسات تشير احيانا الى مطبوعات القرن الثامن عشر، وعدا هذا فان وارنر كان قلما يهتم بالموضوعات الادبية البحتة. أهو اي شخص من الهولنديين من القرن الثامن عشر؟ ان الاحتمال الوحيد هو ان يكون سخولتنس الاكبر، مؤسس العائلة الاستعرابية التي شغلت كرسي الاستعراب ثلاثة ارباع قرن، وهو وحده الذي كان يعرف هذه المواد العلمية بكاملها. لكن الاستعراب كان بالنسبة له بالاحرى «كخادم لعلم اللاهوت المسيحي»، ومن غير المعقول ان يكون على هذه الدرجة من الانجذاب، فيغرق نفسه في دراسة ومقارنة النصوص الشعرية. ومعنى هذا اذن، انه يجب ان يبحث عن مؤلف الملاحظات بين العلماء الذين سافروا الى هولندا في تلك الفترة. وهذه المسألة سرعان ما حلها نهائيا اتفاق المصادفات. فعندما كنت استعد للمحاضرات عن تاريخ الاستعراب، اتجهت الى ترجمة حياة ذاتية تراجيدية لاحد العلماء الالمان من القرن الثامن عشر. ووقفت امام عيني وبحروف ملتهبة احدى صفحاتها الاولى

20*

التي يتحدث فيها عن رغبته في التوجه الى ليدن في عام ١٧٣٨ عندما كان عمره ٢٢ عاما:

«لقد اصابني السوء من هذا. وكان يجب علي ان ادفع غاليا بل وغاليا جدا، ثمن حماقتي! لقد اصبحت صريع الادب العربي. يا ليت ظمئي الملتهب آنذاك الى هذا الادب، هذا الظمأ الذي لم يجلب علي الا التعاسة بسبب انه جاء الي في وقت جد مبكر، في وقت لم يكن احد محتاجا اليه وبالاحرى لم يكن احد يقدر ذلك او يشجعه او يكافئ عليه؛ ليت هذا الظمأ اهتدى الى نفس تستطيع في وقت ما ان تحيا في ازمنة اكثر سعادة! واذا جاءت هذه الازمنة في وقت ما، — وان كان ليس هناك امل في هذا، — فعندئذ يقدر الادب العربي، ويدرس باهتمام اكثر مما هو الآن».

هكذا كتب «ريسكه الفذ» — كما سماه ت. مومزين المشهور — باسلوبه العادي شديد العصبية. وريسكه هذا يعتبر الآن اكبر مستعرب ومتخصص في الدراسات الهلينية في المانيا في القرن الثامن عشر. وكان من الصواب ان تبقى صفته «صريع الادب العربي» كما لقب نفسه في آخر حياته. ولم يكن هذا اللقب مجرد عبارة. فمنذ تلك اللحظة التي كان فيها تلميذا في عامه السابع عشر في مدينة ليبزيغ، حيث وصل اليها من بيت يتيم في مدينة هاله، شعر على حد قوله «برغبة ملحة غامضة مجهولة لدراسة اللغة العربية». وحتى آخر ايام حياته «ذاق تماما معني

مرارة الفقر» كما كتب بكآبة مؤلف ترجمة حياته. والى جانب هذا تذكر كلمات معاصر آخر عظيم، استطاع ان يقدره، هو ك. نيبور الذي لعب دورا علميا هاما في عصره، برحلته الى جزيرة العرب. وقد نقل هذه الكلمات عنه ابنه المؤرخ في التاريخ القديم والتي يقول فيها: «اذا كان اي انسان من قومنا قد ذاق تعاسة الكمال المطرود فانه هو ريسكه... الذي كان يكافح الجوع بكل معنى الكلمة، الامر الذي عرفته كل المانيا». وبهذا الاسلوب الحزين لنغمة موسيقية تراجيدية تدق عبارات مؤلفي ترجمة حياته باللغة اللاتينية تارة وبالالمانية القديمة تارة اخرى. وحتى الآن وبعد ما يقرب من قرنين من الزمان، فانه لم تضعف هذه النغمات الضاغطة الحزينة لتلك العبارات.

وقد وصل ريسكه الى ليدن سائرا على قدميه بالطبع، وهناك امضى ثمانية اعوام من شبابه في ظروف معدمة «مزيلا الجوع – على حد تعبيره – بواسطة الاطباق الغنية من مجموعة مخطوطات وارنر. ولم يكتف بالقراءة فقط، بل نسخ مكتبة كبيرة من المخطوطات العربية، وبصفة خاصة من المخطوطات التاريخية والشعرية ومن بينها كانت «حماسة» البحتري التي انتهى استنساخها في ١٠ ايلول (سبتمبر) ١٧٤٠. ولقد بقيت آثار دراسته لهذا المخطوط في ملاحظاته على مخطوط ليدن والتي نقلتها الي الصورة

الشمسية للمخطوط التي ارتني الطريق الى الشخصية الرائعة، لجدنا التعس الحظ في العلم.

لقد جاء حقا قبل اوانه. ففي العصر الذي سيطرت فيه نظرية ان الاستعراب يجب ان يقتصر على خدمة «علم اللاهوت المسيحي»، جرؤ على ان يعلن ان «اللغة العربية يمكن ان تكون مفيدة جدا للتاريخ والشعر وهذا ما يقوي رغبتي في ان تكون اللغة العربية عندنا اكثر شهرة وذيوعا. ولا يهمني ان ما يسمى «بعلم اللغة المقدسة»، يمكن ان يبنى على اساسها... واذا اردنا ان نساعد اللغة العربية، فانه ينبغي الا تدرس كما يدرس علم اللاهوت. فبمساعدة اللغة العربية يجب العمل على تفسير واغناء التاريخ والجغرافيا والرياضيات والفيزياء والطب». وهكذا يمكن ان يعتبر ريسكه اول من نادى عن وعي وسعة بأن يكون للاستعراب دورا مستقلا في الاستشراق وفي العلم بصفة عامة. الا انه لم يستطع ان يجد في عصره من يشاركونه الشعور في نظرته، وكانوا ينظرون اليه في احسن الاحوال كما لو كان «انسانا بالغ الغرابة يحترم دراسته الشرقية فوق كل شيء». وبمثل هذا تحدثوا عندنا (في روسيا) في القرن الثامن عشر نفسه عن مستشرق آخر غير مفهوم هو كر صاحب المشروع المنسي لتاسيس «مجمع علمي اسيوي او جمعية العلوم واللغات الشرقية» في روسيا وهو المشروع الذي فكر فيه لومونوسوف ايضا.

وان السعادة الوحيدة التي وجدها ريسكه هي في المخطوطات. ومن الصعب الآن ان نقرأ دون تأثر تلك السطور التي توجه بها الى المخطوطات منتهيا من كتابة ترجمة حياته: «ليس عندي اولاد. ولكن اولادي يتامي بدون اب واعني بهم المخطوطات. ولقد ربيت هؤلاء الاولاد بنفس جد حزينة حتى بلغوا رشدهم، وخرجوا الى النور. لكن ماذا سيكون من امرهم بعد موتي؟ ومن الذي سيتبناهم؟ هل سيجدون قلبا وفيا امينا سامي التفكير؟ فليرعاهم الرب! لقد عملت لهم كل ما استطعت من جانبي بل ولن اكف عن مساعدتهم بكل ما اطيق حتى آخر رمق في الحياة».

وقد كان القدر، لحسن الحظ، رحيما بالمخطوطات اكثر من رحمته بصاحبها العالم. فبعد موته وقعت المخطوطات في يد ليسينغ المشهور مؤلف «ناتان الحكيم». وهو واحد من القليلين الذين استطاعوا ان يقدروا ريسكه في حياته. وبعد ذلك وصلت المخطوطات الى مكتبة كوبنهاغن. ورأى النور بعض من هذه المخطوطات. احدها هو تاريخ ابي الفدا المنشور في خمسة اجزاء، والذي لا غنى عنه حتى الآن لجميع المؤرخين. وكان ريسكه هو الذي اعد هذه الاجزاء لنشرها. اما المخطوطات الاخرى فهي تعبر حتى ايامنا عن جهود «صريع الادب العربي» التي لم تعرف الكلل. ولعل اخبار ريسكه قد وصلت حتى روسيا. فقد كتبت اولغا فورش في روايتها «خميرة اليعاقبة» انه عند

وداع راديشيف والطلبة الروس في عودتهم من ليبزيغ «وصل يعقوب ريسكه العالم العجوز مؤسس علم اللغة الاستعرابية الذي لم يكن يثق مطلقا في انه سيحصل على غذاء غده». ولعله لا توجد في هذه العبارة حقيقة تاريخية مضبوطة لكنها تعكس تماما حقيقة فنية وحياتية.

ولندع مستعربينا يتذكرون ان الوقت الذي حلم به - بتشاؤم وعدم ثقة - احد صريعي العلم «وهو الوقت الذي يقدر فيه الادب العربي ويدرس باهتمام اكثر» نقول لندع مستعربينا يتذكرون ان هذا الوقت قد جاء، وان هذا يفرض واجبات كثيرة. وهناك منذ وقت بعيد يزين جدران مكتب اللغة العربية بمعهد الاستشراق، اقتباس من تاريخ حياة هذا العالم الذي لم يعترف به في حياته. وعند النظر الى هذا الاقتباس، فان الانسان يتذكر عفويا، اية ظروف كان يعمل فيها احيانا، اجدادنا في الاستعراب، واية قدوة عظيمة خلفوها لنا.

٢ - كركاس «الوديع»
(١٩٠١-١٩٤١)

في شتاء عام ١٩٠٧ عندما كنت ادرس ذات مرة في المساء عند البارون ف. ر. روزن، وفي فترة الاستراحة عند تحليل بيتين من شعر الاخطل، تذكرت وفاة كركاس منذ عشرين عاما. وسألت روزن عن السبب في انه لا يعرف

الا الشيء القليل عنه. ففكر البارون المعروف بحيويته المعهودة ثم تحدث بطريقة ابطأ من طريقته العادية قائلا: «ولكن ما اقول عنه؟ لقد كان رجلا وديعا ولم يكن يحب ان يتحدث عن نفسه او يتحدث عنه الآخرون. لقد علمني كلمات ابيقور «عش مخفيا». كان يخاف ان يثير غضب قدره ان رآه الناس. وحتى في المحاورات البسيطة لم يكن ينسى دائما «الاستدراك» العربي فكان يقول دائما: «سآتي اليكم في المساء ان شاء الله». كان كركاس انسانا مريضا، وقد عانى كثيرا، وكان يعرف انه لن يعيش طويلا، وكان يعمل في هدوء وانتظام دون ان يشعر به احد. اجل، كان فلاديمير فيدوروفيتش كركاس وديعا لين العريكة ولكن الى حد معين فقط لم يستطع احد زحزحته الى ابعد منه. لقد كد طول حياته، وعندما شعر بأن نهايته تقترب، انعزل جانبا، ومات في هدوء كما كان في حياته بعيدا عن الجميع. وان بعض الاشخاص لا يعرفون حتى الآن تاريخ موته بالضبط. على انهم لم يكونوا عبثا يلقبونه بالوديع... لقد عمل كثيرا وبهدوء ودون ان يشعر الآخرون. وها نحن بكل عجلتنا وتسرعنا لم نستطع طيلة عشرين عاما ان ننهي ما بدأه...» واستغرق البارون في التفكير. ولم استطع بالطبع ان اخمن المعنى الذي قصده بتلميحه، لكن كان من الواضح ان نموذج المعلم «الوديع» للبارون وصديقه قد اثار في نفسه ذكريات الماضي. الا ان البارون لم يرد

ان يتحدث عن ذلك لان كركاس ذاته لم يكن يحب ان يتحدث عن نفسه.

وفي الحق لقد عمل كركاس كثيرا. وفي وقت تلمذتي في بداية هذه القرن، والآن ايضا بعد ٦٠ عاما من وفاته، احاطت كتبه بطلاب الجامعة من بداية دراستهم حتى نهايتها. وفي السنة الاولى بالجامعة ظهر في ايدينا قبل كل شيء «كتاب القراءة للصف الاول» الذي اعده كركاس وروزن. ولم يكن لنا حاجة آنذاك الى كتاب مطبوع في النحو. فقد كان يكفينا كشكول المحاضرات الذي كنا نسجل فيه ما كان يقوله المعلم. وفي السنة الثانية التقينا بكتاب القراءة الكبير لهاتين الشخصيتين بالذات، وقد الحق به قاموس كبير اعده كركاس وحده. وظللنا نلازم هذه الكتب حتى نهاية الجامعة بل وابعد من ذلك. وحتى الآن وبعد ٦٥ عاما من ظهور القاموس العربي الروسي لكركاس، لم يظهر مثل هذا المعجم الاصيل للغة العربية القديمة. وقد ظهر التفكير منذ بداية هذا القرن في اعادة طبع المعجم. لكن من الصعب جدا ان يتقرر ذلك، خوفا من ان تخرج هذه الطبعة اقل جودة من طبعة كركاس الاولى. وفي السنة الثالثة اضيف الى المصادر الاعتيادية، طبعة كركاس لتاريخ القرن التاسع الميلادي لابي حنيفة الدينوري، واضيف ايضا كتاب الفقه الاسلامي الذي ترجمه كركاس عن اللغة الهولندية.

وقد استعددنا للامتحانات النهائية بالجامعة في تاريخ الادب العربي بناء على كتابه الذي نشره بالزنكوغراف.

وهكذا كانت تحيط بنا كتب كركاس دائما. ومع انه لم يكن قد مضى على وفاته آنذاك، سوى ما يقرب من ١٥ عاما، الا انه كان يتمثل لنا في صورة اسطورية بدأ يكسوها الخيال، مثلا عن انتساب مولده الى الشرق. (وهو في حقيقة الامر بيلوروسي – ليتواني). ولم اكن اظن في تلك السنين ان المخطوطات في هذه الحالة ايضا، ستفتح لي فيما بعد، كثيرا من الجوانب التي ان لم تكن تتعلق بشخصية كركاس فانها تتعلق بحياته الكادحة التي لم يكن يعرف عنها الا اناس قلائل، ولم اكن افكر ان بعضا من اعماله ستظل تصحبني حتى ايامي الاخيرة.

في نهاية عام ١٩٠٧، والحديث يدور عن سفري الى سوريا، اعطاني روزن ذات مرة دفترا عاديا صغيرا مكتوبا بخط كركاس بطريقة دقيقة جميلة ويتضمن ما يقرب من ٥٠٠ مثل شعبي، من المحتمل انه جمعها في وقت وجوده في سورية ومصر في بداية العقد السابع من القرن الماضي. وقد كانت اهمية هذه الامثال تتلخص بصورة رئيسية في انها لا تعكس اللغة العربية الفصحى بل لهجة التخاطب العامية التي لم يفكر العلم الاوروبي في ذلك الوقت في دراستها دراسة منظمة. وقد كشف هذا الدفتر الصغير عن عمل كركاس في هذا المجال الذي لم يعد اليه فيما بعد.

وقد احسست فيه سلفا لي مهتما باللغة العامية، وفهمت مدى اهمية نشر هذه المجموعة حتى في تلك الايام وبعد مرور عشرين سنة على وفاته. وكان يجب التحقق من صحة هذه المجموعة في المكان الذي اخذت منه، لكنني لم اخاطر بأخذ الدفتر في اول سفرة لي الى الشرق في سورية ولبنان مع اني كنت مرارا في تلك الاماكن التي زارها كركاس. وكان ذلك من سوء الحظ، ذلك لانه لم يتيسر لي مرة اخرى ان ازور العرب في وطنهم. ولم استطع ان اتحقق كاملا من صحة تسجيلات كركاس عن طريق لغة التخاطب العامية الحية. وظلت مجموعة كركاس الصغيرة غير مطبوعة مع انه تجمع عندي غير القليل من المواد المماثلة لهذه المجموعة. ولم يصدر الا جزء صغير طبع في كتاب القراءة الذي اعده احد تلاميذي.

على اني كثيرا ما تذكرت كركاس هناك في الشرق وانا اقوم بعمل آخر في احد الاوقات. فعندما كنت في فترات التلمذة بالجامعة وفي محاضرات الاستاذ ن. ا. مدنيكوف، درست تاريخ ابي حنيفة الدينوري. وكنت ادئما انظر الى العبارة الفرنسية على جلد النص العربي لهذا الكتاب كما لو كانت لغزا. وهذه العبارة تقول: « La préface et les index paraîtront plus tard » (« ستنشر المقدمة والفهارس فيما بعد »). وكانت حركة العلم والحياة تبدو لي بحكم الشباب اسهل بكثير من وجودها في واقع

الامر. وتحيرت في سر امتداد «فيما بعد» منذ ان ظهرت الطبعة في عام ١٨٨٨ حتى القرن العشرين. الا انني مع الوقت عرفت كل قصة الطبعة وهي قصة لها دلالتها من ناحية سمات العلاقة بين كركاس وروزن.

كان مخطوط الدينوري يعتبر آنذاك مخطوطا فريدا. وكان احدى لآلئ مجموعة القسم التعليمي لوزارة الخارجية لتلك المجموعة التي انتقلت بعد الثورة الى معهد الاستشراق. وقد وصل هذا المخطوط الى هناك مع مجموعة «ايتالينسكي» سفيرنا السابق في استانبول وروما، الذي لم يكن اميرا كما قد يخيل من اسمه، ولكنه خريج الاكاديمية الروحية في كييف، ودكتور في الطب من جامعة لندن. وعندما كان في الستين من العمر تعلم اللغة العربية في تركيا، واصبح مولعا بجمع المخطوطات، بل كان احيانا يضارب في شرائها النمساوي المشهور هامير. على ان البارون روزن عندما كان يعد فهرسه، اكتشف حقيقة مخطوط تاريخ الدينوري. وكان روزن اول من قدر الاهمية الرائعة لهذا الاثر، ونقل منه نسخة كاملة عازما على نشره. الا ان اعمالا اخرى جذبته اليها، وفي العقد التاسع (من القرن الماضي) عدل عن فكرة نشره واعطى نسخته لكركاس. وهذا اعد طبعة المخطوط بعد مقابلته مع صورة اخرى له كانت قد وصلت في ذلك الوقت الى مكتبة ليدن. وكانت قد كتبت بخط المؤرخ والخطاط والديبلوماسي المشهور في عصر الغزو

غ. س. سابلوكوف (١٨٤٧-١٩١١).

انطون صالحاني (١٨٤٧-١٩٤١).



ا. يا. ريسكه (١٧١٦–١٧٧٤).

ف. ف. كركاس (١٨٣٥–١٨٨٧).

المنغولي، ابن العديم الحلبي. على ان كركاس لم يقدر له ان يرى المخطوط مطبوعا فاكمل روزن طبعها. وعند ذاك ظهرت على الغلاف تلك العبارة التي تتعلق بالمقدمة والفهارس. ولعل هذا ما كان يقصده روزن بتلميحه في اجابته على السؤال الذي وجهته اليه عن كركاس. ولم ارد ان اسأله عن هذا مباشرة. على انه بعد موت روزن، وعندما توجهت الى الشرق، اخذت معي دون اي غرض خاص نسخة من طبعة كركاس.

وهناك في رحلتي طيلة عامين غالبا ما كانت تصيبني فترات من توتر المزاج لم اكن ارغب فيها بمقابلة الناس. وجدت لنفسي انقاذا وسلوى في اي عمل مع المخطوطات او الكتب. هكذا حدث في صيف ١٩٠٩. وعندما تذكرت عمل كركاس غير المنتهى بدأت من ١٥ حزيران (يونيو) في اعداد فهارس تاريخ الدينوري. وكان ذلك في ناحية طرابلس القريبة من البحر في مدينة صغيرة هادئة هي الميناء حيث عشت في حجرة من الطابق الثاني من منزل ليس بكبير، ولها نافذة تطل على فناء صغير نظيف مرصوف به بستان صغير. وكانت تنمو في الفناء شجرة دفلى كبيرة تمتد فروعها المزهرة الى شباك حجرتي مباشرة. وقال اصحاب المنزل ان رائحة هذه الشجرة تطرد البعوض. على ان مناظر الطبيعة لم تعطني من الهدوء الا قليلا. ولم اجد ما يلهيني الا في العمل على الفهارس. وانتهيت منها

بعد شهرين في ٢٢ آب (اغسطس) في «اميون» بلبنان الى الجنوب الشرقي من طرابلس.

وهناك في اميون كنت اسكن ايضا غرفة في الطابق الثاني رحبة الاطلالة على اشجار الكرمة في سفح جبل لبنان. وهناك كانت الطبيعة جذابة رائعة، لكنها كانت ذات نغمات نشاز غير متوقعة. فقد عدت مرة في المساء واستطعت بالكاد ان ارى ثعبانا ملتفا على سريري. ومرة اخرى كنت شاهدا عن غير قصد لحالة ثأر من معلم مدرسة طعن بالسكاكين بعد ان تربّص له احدهم في الظلام. وقد زحف بصعوبة حتى باب حجرتي وظل اسابيع طويلة ممددا في حجرتي. هذا بينما كان عملي يسير بدقة، وشغلت الفهارس اكثر من الفي بطاقة ربطتها باهتمام. وفي صيف العام التالي حملتها معي الى روسيا.

كان العام الخامس والعشرون على يوم وفاة كركاس يقترب، وكنت جد راغب في ان اشير الى ذلك باية طريقة. وفي بداية عام ١٩١١ كتبت الى دار «بريل» للطبع والنشر في ليدن المعروفة بين مستعربي العالم كله، ما اذا كانت ترغب في الوفاء بالوعد الموجود علىغلاف تاريخ الدينوري فتنشر الفهارس التي اعددتها له. وكانت دهشتي عظيمة عندما تسلمت في اقل من اسبوعين ردا على رسالتي ولم يكن هذا الرد رسالة فقط، بل ومعه اوراق مطبوعة للفهارس مع طلب فحصها. واتضح من رسالة الدار ان

هذه الفهارس اعدها تلاميذ روزن منذ العقد العاشر، وان روزن قد حررها بنفسه وتم طبعها في ١٩٠٤ ثم تعطل الطبع من اجل المقدمة التي لم يرسلها روزن الى دار بريل بالرغم من تذكيره.

وقد خفت تحت تأثير الانطباع الاول من ان يكون عملي قد ذهب بدون جدوى. الا ان الالفي بطاقة لم تذهب هباء منثورا. فقد اظهر لي فحصي لفهارس روزن انها اعدت بنظام يختلف عما عندي. واعطتني هذه البطاقات امكانية لضبطها والتحقق من صحتها بمقابلة كل منها بالاخرى. والى جانب ذلك كانت تلك الفهارس لا تحتوي على بعض الاقسام التي كانت موجودة عندي والتي كنت قد اعددتها. وكان من السهل آنئذ اكمال الطبعة. واقترحت على بريل اعداد المقدمة الناقصة مع تحليل للمخطوطات التي استخدمت اساسا في طبعة كركاس، ومع وصف للمواد التي تجمعت منذ تلك الفترة، ومع اختصار لمعلومات عن تاريخ حياة المؤلف، واستعراض لمؤلفاته وبخاصة التاريخ الذي يمثل احدى المحاولات المبكرة في الكتابة العربية للعرض العملي (البراغماتي). ولم تكن هناك اية مسودات عن موضوع هذه المقدمة في اوراق روزن التي كانت محفوظة آنذاك عند تلميذه الاكبر ف. ا. جوكوفسكي المستشرق في الفارسية. وكان قد تجمع عندي طيلة السنين الاخيرة كثير من المواد اللازمة

ولم يكن من الصعب طلب ارسال مخطوط ليدن الى بطرسبورغ في نفس ذلك القسم التعليمي لوزارة الخارجية حيث كانت تحفظ مخطوطتنا الفريدة سابقا.

وانتهيت من عملي في مستهل خريف عام ١٩١١. ووصلتني بسرعة الملازم المطبوعة في ليدن. واستغرقت مراجعة طبعها الاشهر الثلاثة الاولى من عام ١٩١٢. واتفق ان ظهرت المقدمة والفهارس بعد انتظار طويل وبالضبط قبيل مرور ٢٥ عاما على وفاة كركاس ناشر الطبعة. وقد اهديت هذا العمل لذكرى اولئك العلماء الثلاثة الذين كان لهم الفضل الخاص في الكشف عن نص تاريخ الدينوري وطبعه. اثنان منهم روسيان هما روزن وكركاس والثالث هو الهولندي دي جويه. وقد لقي هذا العمل تجاوبا في المشاعر من العلماء العرب والغربيين. وتذكر العلم مرة اخرى اسم «الوديع» كركاس معترفا له بالجميل.

على انني ادركت اننا لم نوف تماما ديننا قِبَل ذكرى كركاس. وقد كانت تذكرني به ظروف متباينة. فقد كانت في مكتبة الجامعة اجزاء «كتاب الاغاني» وهو كتاب اشعار لا يقدر بثمن من القرن العاشر. وكان كركاس قد اعد فهارس هذه الاجزاء في مجلد ضخم اشتراكا منه في ذلك العمل الدولي الكبير. ولم يظهر هذا المجلد مطبوعا الا عام ١٩٠٠. وبقي حتى الآن احدى «الوسائل» الرائعة

لعملنا. ومن جديد استطعت ان ارى من نسخة المكتبة مدى الدقة التي اعد بها كركاس طبعة هذا المجلد الضخم للفهارس. وهذه النسخة هي من طبعة بولاق «لكتاب الاغاني». وقد كتب كركاس على هامشها بخط عربي وبحروف منظومة صغيرة. وهناك عند احد تجار الكتب القديمة، وجدت بالمصادفة بعض كتب كركاس، ومن بينها كشكول مسودة كبيرة كتبها كعادته بخط انيق دقيق، فيها اقتباسات وتعليقات وملاحظات عن تاريخ الادب العربي. وقد تضمن كتابه المنشور بالزنكوغراف اقل من نصف هذه المسودة، الامر الذي يظهر مدى جدية كركاس في عمله في الفترة التمهيدية ومدى قدرته في جعل مادة المسودة خاضعة لمطالب البناء العام للكتب. وقد نظرت طيلة هذه السنوات كذلك في تلك المخطوطات العربية القليلة التي وصلت منه الى مكتبة الجامعة. كما فتحت هذه المخطوطات امامي جوانب مختلفة من اهتماماته وجهوده.

ومنذ عام ١٩١٧ صرت اقرب الى فهم ومعرفة كركاس. فقد كنت في ذلك الوقت الامين العلمي للكلية. وكانت تعد في ذلك الوقت كتابة تاريخ الكرسي العربي، هذا التاريخ الذي لم ير النور. ولهذا السبب كان يلزمني ان اتوجه مرارا الى الارشيفات، الامر الذي كان يجمعني مرارا بكركاس. وكأن تقريره عن السنوات الثلاث التي

قضاها في الشرق، والمخزون في محفوظات الكلية، قد سبق انطباعاتي الخاصة التي نلتها انا بعد ٥٠ عاما. وهكذا شعرت في المؤلف سلفا اخيرا لي من جامعة بطرسبورغ. لقد سبقني في الاهتمام بالشرق العربي الحي بلهجاته وبأدبه الحديث الذي كان قد ولد لتوه آنذاك، ثم رأيته وقد نهض نهضة كبيرة. كان كل شيء يجذبني نحو كركاس. وقد اردت من جديد، بمناسبة مرور اربعين عاما على وفاته، ان انوه به في مقالة خاصة و« بكلمات وديعة طيبة ». وبعد ذلك بوقت قليل، قمت بمثل هذا في كتابي الخاص الذي يتعلق بأحد اسلاف كركاس هو الشيخ الطنطاوي المصري.

وقد جمعت بعناية، كل ما استطعت عن تاريخ حياة كركاس العملية، وجهوده غير المرئية. ومن خلال هذا وحده امكن الاحساس بشخصيته. لكن المادة التي تصور شخصيته لم تكن كافية لتمسكه بدقة بمبدأ « عش مخفيا ». على ان احدى الصور الشمسية القديمة احتفظت لنا مصادفة بوجهه المريض، وبطابعه البيلوروسي، وبعينيه الهادئتين المفكرتين، ولحيته الدائرية الصغيرة. ويشير شعره الطويل الى انه لم يكن ممثلا عاديا للموظفين الاداريين المهنيين في « عصر الاصلاحات » للقيصر الكسندر.

وظهر بعد مقالتي احد المصادر الذي يعكس دائما طبيعة الرجل احسن مما تعكسه اعماله المطبوعة او

اوراقه الرسمية. اعني بهذا المصدر رسائل كركاس واخته الى روزن. وكان كركاس قد قضى مع اخته الاعوام الاخيرة من حياة عزوبته، والآن وبعد انقضاء عشرات الاعوام امكن الاستفادة من هذه المراسلات. لكن يدا خيرة دقيقة مهتمة هي وحدها التي تستطيع ان تنتشل من هناك حقائق قليلة غير معروفة بعد، عن تاريخ حياة كركاس العامة. وكان الشيء الاهم هو ان يستخلص منها العديد من السمات الصغيرة لتصوير شخصية «الوديع فلاديمير فيدوروفيتش كركاس». وقد امكن الشعور من هذه المراسلات بتدفق وداعته. وقد كتب هذه المراسلات بخط دقيق، دائم الانتظام، فهي ترن بنغمة هادئة من اخ اكبر الى اخ اصغر او احيانا الى صديق «قلق» ذي ميول علمية منظمة لا تعرف الكلل. وقد قدر كركاس في صديقه هذه الميول عاليا، ومبكرا؛ استجاب لها كركاس بطيبة خاطر منذ العقد الثامن.

وحتى الآن لم نف بديننا قِبـَل ذكرى كركاس وليس فيما يتعلق بمراسلاته فحسب. ونحن انفسنا مذنبون في هذا التباطؤ وان لم يكن دائما. واذا كانت مجموعة الامثال التي جمعها لم تنشر حتى الآن، فان ما اعاق ذلك هو المبدأ القديم «الاحسن عدو الحسن»، اي السعي من اجل ايجاد ما يناسب الامثال التي جمعها كركاس من المطبوعات المختلفة التي ظهرت منذ زمنه. على ان

العمل سنين طويلة اظهر انه لا يمكن استنفاد الشيء كله، وانه من الافضل ان ينشر ولو الصلب الرئيسي في ذلك الشكل الذي تركه عليه كركاس.

على ان ثمة عملا اكبر من سابقه، هو اتمام عمل اجيال العلماء الروس في دراسة تاريخ الدينوري الذى كشفه روزن ونشره كركاس. وكان يلزم العلماء الروس القيام بترجمة علمية انتقادية لتاريخ الدينوري. وكانوا ينتظرون هذه الترجمة منذ مدة طويلة؛ بل ان روزن فكر فيها في وقته واعطى احيانا لتلاميذه اجزاء منفصلة منها. ثم ظهر التفكير في هذا العمل من جديد في نهاية العقد الرابع واتخذت هذه الافكار شكل عمل مشترك. وقد اقترب هذا العمل من نهايته في مستهل عام ١٩٤١، وكان هناك مترجمون جديون لترجمة جميع اجزاء تاريخ الدينوري، وكان هناك ايضا امين نشيط موهوب «للجنة الدينوري» وهو امر مهم بصفة خاصة. وكان من الممكن اذن التفكير في تحرير الترجمة نهائيا، الا ان حصار لينينغراد في ذلك الوقت اهلك الامين وبعض المترجمين... وحفظت المواد ولكنه كان من الصعب العمل على انهاء الترجمة بقوى ضعيفة ضائعة. ولعل الاجيال القادمة تقوم باداء هذا الواجب.

ولقد كتبت هذه السطور املا في ان تقع في يد واحد من اولئك الذين سيسلمهم القدر مشعل الاستمرار في

استعرابنا. فليحاولوا ما امكنهم ـ كما حاولت انا في وقتي ـ ان يحيوا تلك الذكرى ويواصلوا ذلك العمل الجدير لذلك الشخص الذي لقبه المعاصرون بكركاس «الوديع».

٣ ـ نصف قرن في دراسة مخطوط واحد (١٩٠٣ـ١٩٣٨)

ثمة مخطوطات تشعر بنفسك امامها كأنك تلميذ اسطوري للساحر استحضر الارواح ثم لم يستطع تسخيرها. فما ان تتذكر هذه المخطوطات او تهم بالحديث عنها، حتى تهب على الفور سلسلة من الاشخاص من القرون البعيدة الماضية، ومن الاعوام القريبة من حياتك الخاصة، واذا الامر اذ ذاك يقتضيك ان تكتب عن هذا اما رواية واما كتابا كاملا. ولكن لما كانت حياتنا هي على رأي القائل «عمر الفأر فرّار» فهي لا تسمح باعطاء كثير من الوقت لموضوع واحد. وتراك بقوة الارادة تطرد ما يقف امامك من الافكار لا سيما عن تلك المخطوطات بالذات التي هي عزيزة عليك بصفة خاصة والتي تتعايش معها. لكن المخطوطات تكون احيانا عنيدة وتجد نفسك عاجزا عندما تسألك بقوة وتحكم: «من ذا سيتحدث بعدك عن هذا؟ هل ترى اعطيناك الحق في ان تطوي هذا بانطوائك؟» ان اوامر العلم الخالد على مدى القرون

اوامر جدية، ولسوف تنحني لها ارادتك الذاتية في آخر الامر.

قليلا ما تمر في ذاكرتي المخطوطات القديمة المرتبطة بعالم معاصر بتلك الدرجة التي ارتبط بها مخطوط لينينغراد «ديوان الاخطل» - صديق يوحنا الدمشقي - مع ناشره العالم البيروتي الصالحاني العربي من دمشق. ولقد جاء اسم هذا الشاعر في ذكرياتي منذ وقت بعيد عندما كنت في الصف الثاني بالجامعة في عام ١٩٠٣.

وعندما كنت اتنقل بعجز تام عبر صفحات كتاب القراءة الضخم لكركاس وروزن، وصلت بالمصادفة آنذاك الى ثلاثة ابيات ادهشتني. وقصة هذه الابيات هي ان الخليفة اقترح على الاخطل المسيحي ان يعتنق الاسلام فأجابه الاخطل منشدا بارتجال إما ساخرا وإما تحت تأثير الخمر قائلا:

«ولست بصائم رمضان طوعا ولست بآكل لحم الاضاحي
ولست بقائم ابدا انادي كمثل العير: حيّ على الفلاح
ولكني سأشربها شمولا واسجد عند منبلج الصباح».

على ان الشاعر لم يعاقب على هذا الهجاء لتحريم الاسلام الخمر، وللصوم والحج والاذان. وقد هدأ غضب الخليفة بيتان ليسا اقل دعابة، وفيهما صور الشاعر حالته تحت تأثير الخمر.

اعطتني هذه الابيات القدرة على فهم العلاقات الداخلية

للخلافة بصورة اكبر مما اعطتني اياه بعض الصفحات عن «تاريخ الاسلام» للعالم ميولر الذي قرأته اكثر من مرة. وبالطبع فان هذه الاشعار متجاسرة. ولذلك فانها عندما ظهرت مطبوعة لاول مرة في بيروت في العقد العاشر من القرن الماضي، كان من غير الممكن ان تمر من رقابة المطبوعات التركية الا بواسطة وضع نقطة على كلمة «العير» التي وصف بها الشاعر المؤذن، فصارت كلمة لا تؤلم المسلمين هي كلمة «الغير». وهكذا كانت رقابة المطبوعات التركية في القرن ١٩ اكثر تشبثا من خليفة دمشق في القرن الثامن. على ان الناشر الماكر فلت من الرقابة في شيء آخر هو انه حافظ بدون تغيير على كلمة «العير» في النسخ الاخرى المخصص ارسالها الى اوروبا.

وكنت قد سمعت التفاصيل عن هذا الناشر لاول مرة من البارون روزن، عندما اقترح علي في كانون الثاني (يناير) ١٩٠٦ عند تخرجي من الجامعة ان نتدارس كل ديوان الاخطل. وكان هذا بالنسبة لي عيدين. فمن جديد عاد الي الشاعر الذي التقيت معه صدفة في كتاب القراءة، والشيء الثاني انني استطيع ان اتعرف عن قرب الى مخطوط اشعار مشهور عندنا كان اساسا للطبعة.

وكان هذا المخطوط قد وجد آنذاك في القسم التعليمي بوزارة الخارجية ودخل اليه ضمن مجموعة ايتالينسكي نفسه، خريج المدرسة الدينية، الطبيب، السفير، العالم في

الآثار القديمة، الذي حفظ لنا ايضا مخطوط تاريخ الدينوري. وعلى حد تعبير روزن فان المخطوط كان احسن ما زين مكتبة ايتالينسكي، وصار درة مجموعة القسم التعليمي. واستطاع العارفون «الشمامون» ان يجدوا هذا المخطوط. وفي عام ١٨٦٧ نقل منه نسخة لنفسه رزق الله حسون المهاجر العربي ومترجم كريلوف والذي عاش آنذاك في بطرسبورغ. ووقعت هذه النسخة بعد عشرين عاما في بيروت واعطت الدفعة الاولى لطبع المخطوط. وقبل هذا الوقت فكر المستعرب الانكليزي ف. رايت في نشر مخطوطنا. ولكن «تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن» كما قال الشاعر العربي. فان رايت لم يستطع تنفيذ خطته لانتهاء طريق حياته في عام ١٨٨٩. على ان روزن في الحقيقة هو الذي كشف عن هذا المخطوط في فهرسه. لكن قبل ذلك ايضا كان مؤرخونا الروسيون يعرفون انه توجد عند الاخطل اشارة الى الصقالبة تكاد تكون اقدم اشارة معروفة عند العرب. وفيها يقول:

«عوادل عوجا عن اناس كأنما يرين بهم جمع الصقالبة الصهب»

وقد اتفق انه في السنة التي مات فيها «رايت» وقعت نسخة حسون في بيروت. ويمكن القول بانها غيرت هناك مجرى حياة عالم ليس بشاب هو انطون صالحاني. وقد كتب هو نفسه فيما بعد يقول: «فلما قرأنا هذه الصفحات

المحياة بنفس الشعر المحض قد عزمنا على انه لا يجب ان نترك هذا الكنز مغلقا الى ابعد من ذلك». وكان الصالحاني قبل ذلك قد اشتهر في العلم كعالم لغوي يعتد به ذي معرفة دقيقة بآثار ادبه القومي. فقد اصدر طبعة من خمسة اجزاء «لالف ليلة وليلة» وهي الطبعة الوحيدة الصالحة للانتشار الواسع. واعد بدقة ونجاح كتاب المنتخبات من «كتاب الاغاني» الضخم. والآن تحول كل اهتمامه تقريبا الى دراسة واحد من اهل وطنه الاقدمين هو الاخطل.

على ان الصعوبات لم تكن بالقليلة لا سيما الصعوبات الفنية. فقد كان من غير الممكن في ذلك الوقت ان يرسل مخطوطنا الى بيروت، والصور الشمسية لم تكن شائعة آنذاك. وهنا اقترح روزن حلا للخروج من هذه المسألة. وبناء على هذا اعد الصالحاني طبعة المخطوط حسب نسخة حسون، وارسل مسودة الطبع الى بطرسبورغ حيث قام روزن بمقارنتها مقارنة كاملة مع اصل المخطوط واضاف اليها جميع الملاحظات والتعليقات التكميلية. وخرجت الطبعة بسرعة في بيروت. وكان قد بدأ طبعها في عام ١٨٩١. وبعد عام انتهى طبع اربعة اجزاء تضمنت كل مخطوطنا مع تعليقات تفصيلية دقيقة. وبدأ العمل على اعداد الفهارس وتصحيح النص الاضافي وجمع الاقتباسات من مختلف المصادر. وكما يحدث في العلم مرارا اخذت تظهر، عند

توجيه كامل الاهتمام، مواد جديدة كما قيل في المثل «كل من سار على الدرب وصل». فقد وجد مخطوط في بغداد وبعد ذلك وجد آخر في اليمن. وكلاهما في الحقيقة ناقص ومعيب، ويتألف من اوراق غير كاملة في تسلسلها، لكنهما حملا كثيرا من التفسيرات والتوضيحات الجديدة. وقد نشرهما الصالحاني كليهما في عامي ١٩٠٥ و١٩٠٧ مستفيدا من خدمات فن الطباعة الفوتوغرافية المتقدم.

وقد اتفق ظهور هاتين الطبعتين مع بداية دراستي عند روزن. فأراد ان يرجع من جديد الى الشاعر الذي اهداه منذ ١٥ عاما ما ليس بالقليل من الوقت والعمل. وقد كان الصالحاني يحب روزن ويحترمه وبناء على طلب الاخير سرعان ما ارسل الي طبعاته، وعند ذلك شعرت بشيء من الفخر، من جراء حداثتي في العلم، ذلك ان الفرصة السعيدة سمحت لي بالدراسة في كتب املكها. ان مثل هذه المدرسة لدراسة التحليل النصي استنادا الى تلك المخطوطات الثلاثة والكتاب المطبوع اقول ان مثل هذه المدرسة كانت صعبة لي في الفترات الاولى غير انها كانت مفيدة جدا. واخذنا عاما كاملا ندرس، باجتهاد، القصائد البدوية الاصيلة من اشعار «حداء الابل» «لمطرب بنى امية» هذه القصائد التي تعكس بوضوح حياة الخلافة في القرن السابع والثامن، وتعرف جيدا بتقاليد الجاهلية القديمة برمتها.

وكانت المراسلات بين روزن والصالحاني احدى الاسباب التي جعلتني اتوجه الى سورية في رحلتي الى الشرق. وعندما سافرت الى بيروت في صيف عام ۱۹۰۸ وجدت في اليوم التالي الصالحاني ناشر الاخطل وذلك في جامعة القديس يوسف. وفي حجرة صغيرة ليس فيها الا الاثاث الضروري جدا، ظهر امامي شيخ عجوز (كان آنذاك قد تجاوز الستين من عمره) الى جوار منضدة غارقا في الكتب وتجارب الطبع. وهذا الشيخ نحيف، قصير القامة، له عيون ثاقبة، ولحية كبيرة بيضاء ومنظر خارجي انجيلي صرف. وكان يبدو عليه اتزان دقيق في علاقاته العامة، لكنني شعرت ان ذكرى روزن ـ الذي لم يره الصالحاني مطلقا ـ كانت بالنسبة له ذكرى مقدسة. وقام من اول خطواتي هناك بالرعاية اللازمة لا لاموري العلمية فحسب بل ولتنظيم حياتي المعيشية. وقد الزمه كبر سنه بترك العمل الذي شغله مدة طويلة في تحرير جريدة الجامعة، والانقطاع عن التدريس في المدرسة الثانوية. ولم يستطع ايضا ان يقوم بالتدريس في الجامعة. لكن هذا لم يمنعني من الحديث معه اكثر من الحديث مع اساتذتي. واذا كان فرق العمر بيننا ظاهرا وواضحا فانه سرعان ما قرب الاخطل بيننا.

وفي ذلك الوقت كان الصالحاني يعد الجزء الخامس من طبعته للاخطل مع جميع الاضافات والتعليقات الخاصة بنقد النص بصفة رئيسية. وكبر حجم هذا الجزء الى درجة

ان رئي تقسيمه الى قسمين يخصص ثانيهما للفهارس. وكان من الممتع لي تتبع كل نظام العمل الذي كان على اعلى درجة من الدقة. وبلغ من دقة الصالحاني انه كان يرى اوراق تجارب الطبع ما بين ١٠ الى ١٥ مرة رغم دقة فن الطباعة البيروتية. وساعدت الصالحاني في قراءة تجارب الطبع بارتياح كبير وما يعود علي بالنفع الكبير. وقد صدر القسم الاول من الجزء الخامس في حزيران (يونيو) ١٩٠٩. وبدأ العمل على الفهارس الذي اشتركت فيه ايضا. وعندما فارقت الصالحاني في صيف ١٩١٠ لم اكن اظن ان خروج هذا القسم الثاني سيؤجل الى اعوام طويلة.

وكان الصالحاني يعمل دون كلل، لكن الاخطل وضع امامه مشكلات جديدة الواحدة تلو الاخرى وجذبه ابعد وابعد بالمخطوطات الجديدة. وفي عام ١٩١٤ سافر هذا الناشر الجدير الى استانبول خصيصا من اجل الدراسة المباشرة لديوان اشعار هجائية موجود هناك للاخطل ولمعاصره جرير. لكن اشتعال الحرب عطل كل خطته مدة طويلة، واثر تأثيرا كبيرا على الجامعة ودار الطباعة. ولم يبتدئ العمل من جديد الا في مستهل العقد الثالث، واستطاع الصالحاني في عام ١٩٢٢ ان يخرج طبعة عن مجموعة ديوان استانبول. وظهر في النهاية بعد ثلاثة اعوام، القسم الثاني من الجزء الخامس مع الاضافات والفهارس. لكن لم ينته بهذا عمل الصالحاني عن الاخطل. ففي كانون الاول (ديسمبر)

ترى لامعات الآل فيها كأنها رجال تعرّى تارةً وتسربل

وجوز فلاةٍ ما يغمض ركبها ولا عين هاديها من الخوف تغفل

بكل بعيد الغول لا يهتدي له بعرفان أعلامٍ وما فيه منهل

تقول البعد والجمع اغوال وهي اطراف الارض الى
تغتال فيها الناس والاعلام احجار ينصب منها
يستدل بها وهي الصوى ايضا والمنهل المشرب

ملاعب جنانٍ كأن ترابها إذا اطردت فيه الرياح مغربل

أجزت إذا الحرباء أوفى كأنه مصلٍّ يمانٍ أو أسير مكبّل

شعر الاخطل. الصفحة الرابعة من مخطوطة في مجموعة ايتالينسكي.
لينينغراد، معهد شعوب آسيا لدى اكاديمية العلوم السوفييتية.

شعر الأخطل

رواية أبي عبد الله محمد بن العباس اليزيدي عن أبي سعيد السكري

عن محمد بن حبيب عن ابن الأعرابي

شعر الاخطل. عنوان مخطوطة من مجموعة ايتالينسكي. لينينغراد،
معهد شعوب آسيا لدى اكاديمية العلوم السوفييتية.

١٩٢٥ قام بطبع منتخبات صغيرة من قصائد الاخطل التي كانت حتى ذلك الوقت في صورة فوتوغرافية من مخطوطي اليمن وبغداد. وبالطبع لم يكن من السهل على الجميع ان يحصلوا على هذه النسخ. وعندما انتهى من كتابة مقدمة هذه المنتخبات اشار اليها على انها آخر طبعاته عن الاخطل. ويقينا ان لمثل هذا الرأي لاسسا يقوم عليها من ناحية الحياة الانسانية. ذلك انه مرت خمسة وثلاثون عاما على دراسته لمخطوطنا، واقترب عمره من الثمانين، وهو العمر الذي يكون فيه من الصعب على الانسان ان يرسم خطة له عن اعمال بعيدة مقبلة.

لكن المخطوطات غالبا ما تسوق اقدار الناس على نحو غير متوقع، وتوجههم حسب ارادتها ورغبتها. ومن الصعب جدا على الانسان الذي تعايش معها، ان يخرج من تحت سلطانها. وهذه المرة ايضا لم تنقطع الصداقة بين الاخطل والصالحاني بطبعه لهذه المنتخبات في ١٩٢٥. وفضلا عن ذلك حدث لي ايضا انني لعبت بعض الدور في اكتشاف جديد ولم افترق ايضا عن شاعري المقرب اليّ.

ذلك انه عندما كنت اعود الى الشاعر من حين الى حين بمناسبة مطبوعات الصالحاني بصفة خاصة، شعرت بتضايق ما من انانيتي العلمية. فقد درست الاخطل اعواما كثيرة لكنني لم اكتب عنه اي شيء مع ان الموضوعات الصغيرة المختلفة والمواد العلمية عن الاخطل تجمعت عندي بكميات

كبيرة. وكانت الفرصة المناسبة في عام ١٩٣١ عندما تسلمت دعوة للاشتراك بكتابة مقالة لمجموعة المقالات الدولية ليوبيل جورج يعقوب. ولقد قدرت عالي التقدير اعماله الرائعة في مجال الشعر العربي وبخاصة ابحاثه التي لا تدانى في دراسته للحياة البدوية المبكرة على اساس تحليل الشعر الجاهلي. واردت ان اتتبع في الموازيات المقارنة لابحاث جورج يعقوب كيف تنعكس الحان الخمر في اشعار الاخطل من الناحية الثقافية والتاريخية والاسلوبية. واشرت في مقالتي بطريقة عابرة الى مخطوط آخر لاشعار الاخطل اكتشفه في طهران رفيقي الاصغر ا. ا. روماسكيفيتش المستشرق في الفارسية الذي مات ميتة مؤلمة وقت محاصرة لينينغراد في ١٩٤٢. وخرجت مجموعة المقالات التذكارية في عام ١٩٣٢ قبيل مرور سبعين عاما على هذا المستشرق المبجل. وارسلت اول نسخة من مقالتي في هذه المجموعة الى صديقي ومعلمي العجوز في بيروت حتى يرى كيف ان حبيبه الاخطل يعيش في فكرنا نحن ايضا.

وبعد شهر تسلمت رسالة من الصالحاني الذي فضل ان يكتبها بالقلم بدلا من الريشة وتحمل هذه الرسالة خطه الخاص الذي الفته منذ عام ١٩٠٦ وها هو الآن عمره ٨٥ عاما! كان يطلب مني ان اخبره عن بعض التفصيلات المتعلقة بهذا المخطوط الجديد، وحاولت تلبية طلبه بمساعدة روماسكيفيتش الذي شاهد المخطوط في مكانه هناك في طهران.

والى هذا الحد انقطعت مراسلاتي مع الصالحاني. ولما كانت هناك صعوبة في العلاقات مع الشرق في ذلك الوقت فانني كثيرا ما فكرت فيما اذا كان معلمي البيروتي الاخير ما يزال على قيد الحياة ام لا. فلقد كان اكبر من كثير من الراحلين وقاسى طول حياته من حمى مزمنة. وفي نهاية عام ١٩٣٨ تسلمت على غير انتظار، مؤلفه الكبير الجديد عن تحليل مخطوط طهران مع اهدائه بخطه الشخصي وبكلمات رقيقة مؤثرة. وظهر ان جامعة بيروت بدأت بعد رسالتي في مفاوضات مع المالك الطهراني للمخطوط من اجل شرائه منه. واستمرت المفاوضات حول ثمن المخطوط اكثر من اربع سنوات. وفي آخر الامر رحل المخطوط من طهران الى بيروت في ايار (مايو) ١٩٣٧. وفي آب (اغسطس) من هذا العام نفسه اتم الصالحاني من العمر تسعين عاما، وغرق مع هذا في دراسة هذا المخطوط دراسة تفصيلية. وبعد عام كانت في يدي نتيجة جهوده في طبعة منسقة مطبوعة بدقة ومحررة بطريقة ممتازة مع لوحات جميلة. وفي هذه الطبعة اشار الصالحاني في السطر الاول الى مخطوطنا في بطرسبورغ الذي بدأ العمل فيه سنة ١٨٩١، وتناول الحديث في الصفحة الثانية ظروف اكتشاف مخطوط طهران الذي عثر عليه ذلك المستشرق الروسي. وفي الحق لقد كان مخطوط طهران يستحق الاهتمام. وتصورت مدى السرور الذي تمتع به الصالحاني – وهو في مغرب ايامه – في

العمل على دراسة هذا المخطوط، ذلك السرور الذي كان اشبه بمكافأة له على اعماله مدة طويلة وتحية جديدة من شاعره الحبيب. وقد ظهر ان مخطوط طهران هو اقدم المخطوطات المعروفة عن اشعار الاخطل وهو مؤرخ بالضبط في عام ١١٠٥ م. وهو، بالمقارنة بباقي المخطوطات، اكمل منها، وقد حوفظ عليه بطريقة احسن منها.

ولم اتمالك نفسي من العجب من توافق غريب عرفته من الكتاب الجديد للصالحاني. ذلك ان هذا المخطوط الطهراني بالذات كان قد درسه التبريزي العالم اللغوي نفسه عندما كان عمره ٨٠ عاما. هذا التبريزي الذي سافر والمعجم على ظهره ليدرس عند ابي العلاء الشاعر الضرير «رهين المحبسين». والتقيت من جديد مع التبريزي هنا في هذا الكتاب. وهكذا ظهر ان العالم ضيق ليس فقط على الناس الذين تلتقي معهم على نحو غير متوقع وفي مكان غير منتظر. واذا عشت مع المخطوطات طويلا فانك غالبا ما تلاقي — لدى التعرف الجديد — الصديق القديم في موقف جديد.

وبعد الحرب العالمية الثانية فقط وصلتني اخبار عن الصالحاني بانه انهى حياته التي قاربت المائة عام في ١٠ آب (اغسطس) ١٩٤١. والصالحاني الآن، كما عبر لي كاتب الرسالة «ينام نومته الاخيرة تحت الارز في جونيه». ولقد اهدى معلمي البيروتي ما يزيد على نصف حياته الى ابن وطنه الاخطل «مطرب بنى امية» والى مخطوط اشعاره الموجود عندنا في لينينغراد.

خاتمة

REQUIEM AETERNAM...

(١٩٤٣)

ان روحي فردوس الظلال
ظلال صامتة وضاءة رائعة.
تيوتشيف

... تتوالى امامي صور الماضي الواحدة تلو الاخرى بخط لانهائي يلتف بعيدا بعيدا في ذاكرتي. وليس في مقدوري بل ولا اريد ان اوقف توالي هذه الصور. ان كل مخطوط اتذكره الآن سواء أكان قديما او جديدا، في البلاد العربية ام في روسيا، قد دخل الى حياتي بسلطان فبدلها بطريقته ووسع رحابها. ولو لم تكن هذه المخطوطات لما استطعت ان اعرض هذا الماضي ولما استطعت انا نفسي ان ارى اولئك الناس الذين كتبوا هذه المخطوطات ولا اولئك الذين كتبت عنهم المخطوطات، ولبقي تاريخ علمنا الاستعرابي صامتا لي، ولرنّت جافة بدون حياة اسماء اسلافنا العظام والمتواضعين العاملين في الاستعراب.

على ان المخطوطات قد مكنتني احيانا من رؤيتهم بصورة اوضح مما لو كانوا في حياتهم، وقادتني الى فردوس عظيم

هو فردوس «الظلال الصامتة الوضاءة الرائعة». وتلألأت هذه الظلال في عيني بكل الوان الحياة. وعندها ارى اسلافا ومعلمين ورفاقا. وهناك الى جانب عمالقة علمنا الاستعرابي امثال فرين وروزن، كان عاملون متواضعون خلقوا قاعدة تدريسنا الاستعرابي امثال بولديريف مؤسس الاستشراق في موسكو الذي تدمرت حياته لتصريحه بطبع «رسالة فلسفية» لتشآدايف، وامثال كركاس ضحية السل الذي مرض به في سوريا. والى جانب البارون اللامع برامبيوس وهو المستعرب سنكوفسكي الذي قرأت له كل روسيا، يقف رجلان اشتهر كل منهما بكتاب واحد اولهما سابلوكوف المعلم المحبوب لتشيرنيشيفسكي وثانيهما مدنيكوف، وكلاهما لا يعرفهما الآن الا العلماء. والى جانب الروس يقف عربيان عملا في روسيا، اولهما الشيخ الطنطاوي المصري وثانيهما مرقص الدمشقي. وبين الشخصيات المدنية تقف شخصية عسكرية هي شخصية الجنرال بوغوسلافسكي الذي تصادق معه الشيخ شامل. وسار بعضهم بثبات على الطريق حتى النهاية وآخرون سقطوا تحت ظلم القدر القاسي دون ان يكملوا ما كان مقدرا عليهم ان يكملوه.

ان قلبي ينعصر. وان ظل المعلمين لا يحجب ظل التلاميذ الراحلين قبلنا. واراهم كثيرين... حربان عظيمتان اهلكتا زهرات في الشباب قبل الاوان، وقدر قاس لم يمهل ذلك الريعان. وجميعهم احتكوا عن قرب بالعلم الاستعرابي

وجميعهم سحروا به وفتنوا. وكما تحدثت المخطوطات معي فانها ايضا تحدثت معهم وبلسان حي مبين. وغالبا ما حمل الي اصدقاء شباب كنوزا اكتشفوها بأيديهم وعيونهم. وسررنا معا، وحزنا معا، وتحملنا معا كثيرا من السنين القاسية عندمـا ساعد حماسهم «المتدفق» حيويتي المتهاوية.

ان «فردوس الظلال» واسع... فهناك اجيال الشيوخ واجيال الشباب في استعرابنا مدة قرنين. وعندما تبدأ تعدهم او تحسبهم تراهم يظهر منهم الجديد والجديد مثلهم مثل عدك او حسابك للنجوم في السماء. ولقد عملوا كثيرا من اجل المخطوطات والكتب، والكتاب هو وحده الذي يمكن ان يحفظ ذكراهم. وقد مضى اكثر من ثلاثين عاما منذ بداية اعداد مثل هذا الكتاب. وياتي الى هذا الكتاب من المحفوظات والمخطوطات والمطبوعات، كل جديد وجديد من الاسماء، وكل جديد من معالم حياة العاملين في الاستعراب او الذين ارتبطوا مصادفة به. ان هذا الكتاب سيكون دقيقا وجافا وموجزا ولكن سيفهمه مؤرخو العلم ومؤرخو ثقافتنا. ولعل في الصور التي تقف الآن في كتاب «مع المخطوطات العربية»، تلمح شخصيات اسلافنا في الاستعراب حية اكثر مما في ذلك الكتاب. ولعل «ظل الراحلين» يضيء بشعاع رقيق من الذكريات. ولندع كل من يقرأه يتمنى لهم Requiem aeternam ، الهدوء الابدي والذكرى الحامدة الشاكرة لكل من يرتبط ذكرهم بصفحات هذا الكتاب.

لزوم ما لا يلزم

للشاعر ابي العلاء الذي ظهر اسمه اكثر من مرة على صفحات هذا الكتاب، ديوان اشعار تحت عنوان غريب «لزوم ما لا يلزم». وفي هذا العنوان يرون عادة تلميحا الى القافية الثنائية المعقدة الموجودة في جميع اشعاره مع ان الشعراء لا يستخدمونها الا نادرا جدا من اجل اظهار براعتهم في قطع صغيرة. ولا شك ان هذا هو المعنى الاول – الظاهري الى حد معين – لهذا العنوان. لكن من يعرف منهج ابي العلاء يمكن ان يتأكد من انه اعطى لهذا العنوان معنى آخر «خفيا». فهو يريد ان يقول ان افكاره والاستنتاجات الناجمة عنها والتي عرضها في اشعاره، يمكن ان تكون غير ملزمة للآخرين، لكنها ملزمة له نفسه، وانه لا يستطيع ان يحيا بدونها. وهكذا ايضا علماء اللغة، من الصعب عليهم ان يقلعوا عن عاداتهم التي تبدو زائدة للقارئ العادي. وهم لا يشعرون بالرضا الا عندما تقف الى جوار «النص» الاساسي، ملحقات الشروح وتعليقات على الشروح

وايضا عندما توجد في «هذه الملاحق» الملاحظات والفهارس ومعجم المفردات. وكل هذا «ما لا يلزم» للكتاب، لكن العلماء هم «اناس مفسودون» فان «لزوم» مثل هذه الملحقات «غير اللازمة» اصبح لهم طبيعة ثانية لا يمكن تغييرها.

وعندما كتبت اقسام هذا الكتاب فان مثل هذه الافكار لم ترد في رأسي، لكن عندما امسى الكتاب يتخذ شكله النهائي رأيت ان من الضروري، اضافة ملحقاتنا «العلمية» العادية. وعن هذا حدثتني باجماع واصرار ملاحظات اولئك الاشخاص الذين اطلعوا مصادفة على فصول هذا الكتاب واشاروا بصفة خاصة الى ايجاز الفصل الاول حيث كانت هناك اشياء كثيرة لا يفهمها غير المتخصصين بدون تفسير او اطناب. وحاولت الا انجذب «بالنزعات العلمية» وحددت نفسي بالاجوبة على تلك الاسئلة التي توجهوا بها الي. وكان من غير الممكن ادخال التذييلات او التعقيبات الى النص الاصلي نفسه حتى لا يفسد سير العرض. وكان من الاسهل جعل جميع مواد الملاحق في النهاية حتى يكون في امكان من لا يهتم بهذه الملاحق او لا يحتاج اليها، الا ينظر اليها.

وكان من اللازم قبل كل شيء ان تضاف قليلا كلمات تمهيدية عن اهم سبب استدعى ظهور هذا الكتاب. وعندما كنت اعمل في تاريخ العلم وفي اعداد معجم تراجم حياة

مستعربينا ومؤلفاتهم، عرقل عملي دائما كون العلماء نادرا ما يتحدثون عن انفسهم وعن تطورهم الداخلي وعما عاشوه في هذا العمل او ذاك، وعن طريقة وصولهم الى هذا الاكتشاف او ذاك. وبالطبع فان اللحظات الجزئية لكل هذا تنعكس احيانا فيما يترجم لهم الآخرون من تاريخ حياتهم او فيما يترجمونه هم انفسهم من هذا التاريخ، ولكن هذه الانعكاسات تكون دائما في صورة اشارات عارضة سريعة. ودائما ينشر حاصل نتائجهم العلمية في مؤلفات خاصة. لكن مثل هذه التراجم لتاريخ الحياة الداخلية للعالم لا مكان لها فى هذه المؤلفات بحكم طبيعتها واسلوبها وطريقتها. والمعروف لدي من جميع كتب تاريخ الاستعراب هو كتاب واحد لعالم الماني من الدرجة الثانية يذكر فيه بحيوية وحدة ذكاء كيف درس اللغة العربية (هو كتاب Martin Thilo. Was die Araber sagen. Bonn, 1939 مارتين تيلو «ماذا يتكلم العرب»، بون، ١٩٣٩). وان علماء العلوم الطبيعية في هذه الناحية هم اسعد حظا منا نحن علماء اللغة. فلديهم كتاب رائع لالكسندر فيرسمان هو «ذكريات عن حجر» (موسكو ــ لينينغراد، طبعة اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي، ١٩٤٥). وان اهمية هذا الكتاب لعظيمة. يتبين هذا لا من اعادة طبعاته فحسب بل ومن الصدى الحي الذي اثاره في جميع اطراف بلادنا وقد اسهم هذا الكتاب في دعاية واسعة للعلم ودعم دعما عاليا الحماسة العلمية

لدى اولئك الاشخاص الذين احتكوا بهذا الكتاب. وكانت المخطوطات – وهي المصدر الاساسي والمادة الاساسية في عملنا – تقف دائما في فكري بمكان الحجر من هذا الكتاب. وهكذا منذ زمن بعيد صار واضحا لي محور كتابي هذا.

وعندما اخذت الافكار والنماذج البشرية تسعى باصرار الى عرضها على الورق، فان الدفعة المباشرة لهذا كانت الاحتفال التذكاري لايفان بيتشكوف الذي كان خلال مدة طويلة خازنا لقسم المخطوطات بالمكتبة العامة المعرفة باسم سالتيكوف – شيدرين في لينينغراد. وقد احتفل بهذه الذكرى بحرارة في بداية عام ١٩٤١. وعند ذاك تولدت عندي فكرة عن تذكر تلك المخطوطات العربية التي تسلمتها من يده طيلة بضع عشرات من السنين من اجل اعمالي المختلفة. وهكذا تولد الفصل الاول من هذا الكتاب من خمسة اجزاء مع تمهيد وخلاصة لهذا الفصل. وهذا هو اول شيء في الكتاب انتهى كاملا.

اما الفصول التالية فقد كتبتها بطريقة تختلف بعض الاختلاف وبحجم آخر. وكتبتها بصورة رئيسية في عامي ١٩٤٢، ١٩٤٣ عندما حملتني الحرب الوطنية الكبرى على ترك لينينغراد موقتا. وعندما وجدت نفسي، لاول مرة خلال عملي الطويل، بعيدا عن المكاتب التي الفتها، فانني حزنت حزنا شديدا على المخطوطات، ووجدت في كتابة ذكرياتي عنها، سلوى لنفسي. وانضمت بالتدريج

الى هذه الفصول الثلاثة اقسام تمهيدية اخرى يغلب عليها طابع الذكريات الشخصية. وبما ان الفصول الجزئية لم تولد بذلك النظام المتتابع الذي تتحد فيه الفصول الموجودة حاليا في هذا الكتاب فانني اشرت في الملاحق الى تاريخ الانتهاء من كل فصل. وقد اقتنعت مرارا في عملي المكرس لتاريخ العلم الاستعرابي بانه يحدث احيانا الاسف بسبب غياب التواريخ، ولذلك عندما وجدت ان الحوادث ترتبط بالضبط مع السنين المعينة فانني اشرت الى هذه السنين تحت العناوين.

اما الملاحظات الخاصة بالكتاب فقد ظهرت الحاجة اليها بصورة رئيسية من اعتبارين برزا عند قراءة بعض القطع الجزئية من الكتاب، على ممثلين مختلفين تماما في تخصصاتهم. فقد ظهر ان المستمعين يميلون احيانا الى قبول اقاصيص الكتاب على انها نوع من الخيال الادبي الذي لا يوجد له اي اساس حقيقي محدد. وكان يجب علي الرد بأن الامر على العكس من هذا: فكل اقصوصة، تعبر عن حادث حقيقي مع المخطوطات التي وقعت في يدي، وانه لا يوجد مطلقا اي خيال في صلب الموضوع. وبالطبع فانني نسيت بعض التواريخ في تذكري لماض ينتشر فيما يزيد على اربعين عاما، وانني غيرت بعض التفاصيل وتحدثت عن بعض الحوارات بصورة ليست مطابقة تماما للصورة التي قامت بها في الحقيقة، واكثر

من هذا انه، لم استطع ان اجد استعلامات ضرورية حتى في كتبي الخاصة. لكن كل الصور لا تعكس الا حقائق واقعية وشعوري الذي عشته آنذاك. ولربما ان هناك تحريفا في تصوير هذا الشعور بسبب مرور السنين، الا ان نفس الحقائق صورت دون اي تغيير فيها.

ومن اجل هذا سمحت لنفسي في ملاحظات للكتاب بأن اقدم الى كل جزء تقريبا، اشارات الى اعمالي التي تتحدث عن نفس تلك المخطوطات، او التي تدلي ببعض المعلومات عنها لكن من الناحية العلمية الخالصة. وآمل بأن هذه الاشارات قد تكون مفيدة ايضا لاولئك الذين يريدون ان يحصلوا على معلومات اكثر تفصيلا عن المواد التي اشير اليها، او من اجل فك رموز اي تلميحة طارئة في الكتاب؛ وذلك بناء على الرغبات التي اظهرها اولئك المستمعون، وخاصة فيما يتعلق بالفصل الاول. وبالطبع لم استطع ان اقوم بتفصيل كل هذا بل ولم ارغب فيه، ذلك لان مثل هذا العمل قد يجرني بعيدا جدا وعندها قد يصل حجم هذه الملاحظات الى حجم النص نفسه. وحاولت ان اكون مختصرا والا اعطي الا الخيط الرئيسي الذي يساعد من يرغب في توسيع تعرفه بالموضوعات الاساسية التي لمسها الكتاب. ولذلك حددت نفسي بالاشارة الى اعمالي الخاصة والى ارقامها في «قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي» المطبوعة في دار الطبع والنشر لاكاديمية العلوم في الاتحاد

السوفييتي. وعند كتابة الاسماء والعناوين في هذا الكتاب، فانني بسّطت ترجمة رموزها الصوتية العلمية العادية. ولنفس هذا الغرض وضّحت بعض الاسماء الشخصية او اسماء الكلمات العربية اي مجرد تعليقات مختصرة لاولئك الاشخاص الذين يلزمهم هذا.

على انني افهم جيدا ان كل هذا لا يمثل ضرورة في كتاب من هذا النوع، وان كل هذا من الامور التي سماها ابو العلاء «لزوم ما لا يلزم». لكن لعل في هذا الملحق افادة ما، فان العرب يقولون: «زيادة الخير، خيرين». اما اولئك القراء الذين لا يحتاجون الى ذلك، فعليهم الا يلوموني فهم يستطيعون الا ينظروا الى هذا الملحق.

ملاحظات

١. «في قسم المخطوطات»

١ ـ **«كتاب قديم»**. انظر «قصة من الانجيل في مخطوط عربي (٨٨٥ـ٨٨٦م)». «التاريخ البيزنطي»، عدد رقم ١٤، ١٩٠٧ـ١٩٠٩، ص ٢٤٦ـ٢٧٥ (باللغة الروسية) (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ١٠)*.

٢ ـ **«مترجم كريلوف»**. انظر «رزق الله حسون (١٨٢٥ـ١٨٨٠)، مترجم اشعار كريلوف الى العربية». المجموعة الشرقية ـ لينينغراد. طبعة المكتبة الحكومية العامة باسم سالتيكوف ـ شيدرين، عام ١٩٢٦، ص ١٣ـ٢٦. (باللغة الروسية) (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٢١٢).

٣ ـ **«معاصر هولاغو»**. انظر «Angebliche Autographe des Geschichtsschreibers Kamal ad-din Ibn al-Adim in Leningrad». Der Islam, (باللغة الالمانية)، العدد ١٥، ١٩٢٦، ص ٣٣٤ـ٣٣٦. (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٢١٧). في هذه الملاحظة اشارة الى الكتب السابقة عن هذا المخطوط.

٤ ـ **«رهين المحبسين»**. قارنه مع «نحو تاريخ ونقد «الرسالة الفلاحية» لابي العلاء» في مجلة «اخبار القسم الشرقي لرابطة علماء الآثار

* راجع هنا وفي ما بعد: اغناتي يوليانوفيتش كراتشكوفسكي. موسكو ـ لينينغراد (مواد حول مؤلفات العلماء السوفييتيين).

الروسية» المجلد ٢١. (١٩١١–١٩١٢) ١٩١٣، ص ١٣١–١٣٧. (باللغة الروسية) (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٥٢).

٥ – **«من صقلية الى بطرسبورغ عبر ايران»**. الوصف العلمي لمخطوط الادريسي الجغرافي المحفوظ في المكتبة العامة، لم يظهر مطبوعا بعد. قارن هذا مع كتاب «Idrisi. La Finlande. Edition critique par O. J. Tallgren–Tuulio et A. M. Tallgren» (Studia Orientalia, III, Helsingforsiae), ١٩٣٠، ص ١٦. ملاحظة رقم ٢ (باللغة الفرنسية).

٢. «جولات في الشرق»

١ – **«الكتب والناس»**. كتبت في موسكو في ١٦–١٩ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٢. عن دراساتي في جامعة القديس يوسف. انظر «الكلية الشرقية بجامعة القديس يوسف في بيروت. من تقرير عن المامورية الرسمية». مجلة وزارة المعارف العامة (باللغة الروسية). شباط (فبراير) ١٩١٠، «الاحداث المعاصرة» ص ٤٩–٨٧. (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٢٣).

٢ – **«امقالة نحوية ام رسالة الحادية؟»** كتبت في مصحة «سوسنوفي بور» («اجمة الصنوبر») في قرية بولشيفو قرب موسكو في ١١، ١٣ ايلول (سبتمبر) ١٩٤٢. انظر «ابو العلاء المعري – رسالة الملائكة. النص والترجمة والتعليقات». اعمال معهد الاستشراق التابع لاكاديمية العلوم السوفييتية. مجلد ٣. لينينغراد، ١٩٣٢. (باللغة الروسية) (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٢٨١).

٣ – **«رسالة ماجيستر غير مكتوبة»**. كتبت في مصحة «سوسنوفي بور» في ٨–٩ ايلول (سبتمبر) ١٩٤٢. انظر «المخطوطات العربية لمكتبة المجلس البلدي بالاسكندرية، وديوان عمر المحار» مجلة «اخبار القسم الشرقي لرابطة علماء الآثار الروسية»، مجلد ٢٢ (١٩١٣–١٩١٤)

١٩١٥، ص ٥ــ٧ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٦٥).

٤ ــ **«مخطوطات بطريركين ام نبوءة تحققت»**. كتبت في مصحة «سوسنوفي بور» في ١٨ــ٢٠ ايلول (سبتمبر) ١٩٤٢. انظر «مخطوطات عربية من مجموعة غريغوريوس الرابع بطريرك انطاكية. وصف موجز». مجلة «اخبار المعهد القفقاسي للتاريخ والآثار»، مجلد ٢، (١٩١٧ــ١٩٢٥) ١٩٢٧، ص ١ــ٢٠. (باللغة الروسية) (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ١٣٩).

٣. «كتاب عرب ومستعرب روسي»

١ ــ **«فيلسوف وادى الفريكة»**. كتبت في لينينغراد في ١٩ آب (اغسطس) ١٩٤٥. انظر «امين الريحاني ــ مؤلفات مختارة. ترجمة وتعليقات ا. يو. كراتشكوفسكي»، بتروغراد، دار «اوغني» («النيران») للطبع والنشر. ١٩١٧ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٩١). «امين الريحاني. اشعار منثورة. ترجمة ا. يو. كراتشكوفسكي» في مجموعة «فوستوك» («الشرق»)، مجلد ١، ١٩٢٢، ص ٤٨ــ٥٤ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ١١٠).

٢ ــ **«ارستوقراطي القاهرة ــ «الفلاح»»**. كتبت في لينينغراد في ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٥.

٣ ــ **«طالب المدرسة الدينية فى بولتافا»**. كتبت في لينينغراد في ٦ــ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٥. انظر «Michail Na'imah's Autobiographie». Die Welt des Islams، مجلد ١٣، ١٩٣١، ص ١٠٤ــ١١٠ (باللغة الالمانية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٢٧٩). وانظر

«تقريظ كتاب ميخائيل نعيمة عن جبران» في مجلة «الاستشراق السوفييتي»، مجلد ٢، ١٩٤١، ص ٢٩١—٢٩٣ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٣٧٢).

٤. «في المتحف الاسيوي»

١ — «**مقدمة لاسطورة**». كتبت في موسكو في ٢١—٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢. عن تاريخ المتحف الاسيوي حتى ١٩١٩ انظر «المتحف الاسيوي التابع لاكاديمية العلوم الروسية (١٨١٨—١٩١٨). تذكرة قصيرة». بتروغراد، ١٩٢٠، دار الطبع والنشر لاكاديمية العلوم السوفييتية (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ١٠٢). وانظر «عن ف. ا. روزنبرغ»، مقالة تابين في مجلة «اخبار اكاديمية العلوم السوفييتية»، قسم العلوم الاجتماعية، ١٩٣٥، ص ٨٩٥—٩١١. (باللغة الروسية) (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٣٤٠). في نهاية هذا الفصل اشارة الى اسطورة عن المتحف الاسيوي الفت على نمط قصص البطولة الفرنسية القديمة لاحد المستشرقين الروس في الدراسات الصينية في بداية العقد الثالث من القرن العشرين. وابطال هذه الاسطورة كانوا مستخدمين في المتحف الاسيوي في ذلك الوقت.

٢ — «**مخطوط وحيد وعلماء اثنتي عشرة لغة**». كتبت في مصحة «سوسنوفي بور» وفي موسكو في الفترة بين ٢٤ ايلول (سبتمبر) و١١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٢. عن ابن قزمان انظر فصلا في مقالة «الشعر العربي في اسبانيا» في مجموعة «الثقافة الاسبانية»، طبعة اكاديمية العلوم السوفييتية ١٩٤٠، ص ١١١—١١٢ مع فهرس للكتب في ص ١١٦ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٣٦٦). عن مجموعة روسو في المتحف الاسيوي انظر مقالة (مؤلف

مجهول بخط الامير السوري اسامة» في مجلة «اخبار رابطة المستشرقين للمتحف الاسيوي التابع لاكاديمية العلوم السوفييتية»، مجلد ١، ١٩٢٥، ص ١٦ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ١٨١).

٣ ـ **«معاصر اول غزوة صليبية»**. كتبت في موسكو في ١٦ـ١٨ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٢. انظر «مؤلف مجهول بخط الامير السوري اسامة» في المصدر السابق، مجلد ١، ١٩٢٥، ص ١ـ١٨ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ١٨١). قارن هذا مع كتاب «اسامة بن منقذ. كتاب الاعتبار»، ترجمة م. ا. ساليه. بتروغراد ـ موسكو، دار الطبع والنشر «الادب العالمي»، ١٩٢٢ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ١١٢).

٤ ـ **«ربان فاسكو دي غاما»**. كتبت في موسكو في ٢٩ـ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢. ملاحظة قصيرة عن المخطوط مع صورة الصفحة الاولى في مقالة «الرحالة والجغرافيون العرب» في مجلة «اخبار الرابطة الجغرافية، الحكومية»، مجلد ٦٩، الجزء الخامس، ١٩٣٧، ص ٧٥٨ـ٧٦٠ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٣٥٢).

٥. «في المكتبة الجامعية»

١ ـ **«المكتبة وامناؤها»**. كتبت في موسكو في ٢٥ـ٢٨ ايار (مايو) ١٩٤٣.

٢ ـ **«معارض رسالة ماجيستر لاول مرة»**. كتبت في مصحة «اوزكويه»، قرب موسكو في ٦ـ٨ تموز (يوليو) ١٩٤٣. انظر «احد مصادر تاريخ حياة الشعراني» في مجلة «اخبار القسم الشرقي لرابطة علماء الآثار الروسية»، مجلد ٢٢، ١٩١٥، ص ٢٨٣ـ٢٩٠ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٧٢). قارن هذا مع تقريظ

كتاب «ا. ا. شميدت. عبد الوهاب الشعراني وكتابه «الدر المنثور»، بطرسبورغ، ١٩١٤»، في مجلة وزارة المعارف العامة، نيسان (ابريل) ١٩١٥، ص ٣٨٨–٤٠٠ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٧٥).

٣ – **«من القاهرة حتى مقبرة فولكوفو في بطرسبورغ»**. كتبت في مصحة «اوزكويه» في ٩–١١ تموز (يوليو) ١٩٤٣. انظر «الشيخ الطنطاوي استاذ جامعة سانت-بطرسبورغ (١٨١٠–١٨٦١)» في مجلة «اعمال لجنة تاريخ المعرفة»، عدد ٨، لينينغراد، ١٩٢٩ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٢٦٦). قارن هذا مع «الاستعراب وتاريخ الشعوب السوفييتية» في مجلة «اخبار اكاديمية العلوم السوفييتية»، ١٩٣٨، عدد ٥، ص ٥٩–٦٠ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٣٦٠).

٤ – **«الاندلس ولينينغراد»**. كتبت في مصحة «اوزكويه» في ١٣–١٦ تموز (يوليو) ١٩٤٣. انظر «الاستعراب الاسباني في نصف قرن» في مجلة «اخبار رابطة المستشرقين للمتحف الاسيوي التابع لاكاديمية العلوم السوفييتية»، مجلد ٤، ١٩٣٠، ص ١–٣٢ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٢٦٨). وعن د. ك. بتروف انظر «د. ك. بتروف – المستعرب» في المصدر السابق، مجلد ٢، ١٩٢٦، ص ١٦٣–١٧٠ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٢١٥).

٦. «كل من سار على الدرب وصل»

١ – **«لوحات برونزية صغيرة من بلاد ملكة سبأ»**. كتبت في مصحة «اوزكويه» في ٢٤–٢٥ تموز (يوليو) ١٩٤٣. انظر «لوحتا خطوط اثرية من جنوب جزيرة العرب في لينينغراد» في مجلة «اخبار اكاديمية

العلوم السوفييتية » قسم العلوم الاجتماعية، ١٩٣١، ص ٤٢٧ـ٤٥٣ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٢٧٧).

٢ ـ **«رسالة من بلاد الصغد»**. كتبت في مصحة «اوزكويه» في ١٩ــ٢٠ تموز (يوليو) ١٩٤٣. انظر «اقدم وثيقة عربية من آسيا الوسطى» في «المجموعة الصغدية»، لينينغراد، ١٩٣٤، طبعة اكاديمية العلوم السوفييتية، ص ٥٢ـ٩٠ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٣١٢).

٣ ـ **قرآن كوفي و«جدة عربية»»**. كتبت في لينينغراد فى ٨ آذار (مارس) ١٩٤٢. عن ا. غ. نوفل انظر «مخطوط جديد عن وصف الروسيا للشيخ الطنطاوي» في «خطب اكاديمية العلوم السوفييتية. سلسلة الاستشراق». لينينغراد، ١٩٢٨، ص ٣٠٢، ملاحظة رقم ٢ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٢٥١).

٤ ـ **«المراقب الملازم لشامل في كالوغا»**. كتبت في مصحة «اوزكويه» في ٢٨ـ٢٩ تموز (يوليو) ١٩٤٣. انظر «رسالة غير مطبوعة لشامل» في مجلة «اخبار معهد الاستشراق لاكاديمية العلوم السوفييتية»، مجلد ٢، ١٩٣٣، ص ١ـ٧ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٢٩٢). «ترجمة القرآن. د. ن. بوغوسلافسكي» في مجلة «الاستشراق السوفييتي»، مجلد ٣، ١٩٤٥، ص ٢٩٣ـ٣٠١ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٤٠٢). وانظر «تشيرنيشيفسكي والمستشرق سابلوكوف». وانظر «ن. غ. تشيرنيشيفسكي (١٨٨٩ـ١٩٣٩)»، من اعمال الدورة العلمية بمناسبة الذكرى الخمسين لوفاته. لينينغراد، ١٩٤١، ص ٣٤ـ٤٥ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٣٧٨).وانظر «الاستعراب وتاريخ الشعوب السوفييتية» في مجلة «اخبار اكاديمية العلوم السوفييتية»، عدد ٥، ١٩٣٨، ص ٥٧ـ٥٩ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٣٦٠).

٧. «ظل الاجداد»

١ ـ **«صريع الادب العربي»**. كتبت في لينينغراد في اول آب (اغسطس) ١٩٤٥. انظر «حماسة البحتري واول باحث لها في اوروبا» في مجلة «اخبار القسم الشرقي لرابطة علماء الآثار الروسية»، مجلد ٢١، (١٩١١ـ١٩١٢)، ١٩١٣، ٠٢٢ـ٠٣٣ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٤٩).

٢ ـ **«كركاس «الوديع»**. كتبت في لينينغراد في ٥ آب (اغسطس) ١٩٤٥ انظر «ف. ف. كركاس. بمناسبة ذكرى الاربعين لوفاته» في مجلة «اخبار رابطة المستشرقين للمتحف الاسيوي»، مجلد ٣، ١٩٢٨، ص ٦٣ـ٩٠ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٢٣٨).

٣ ـ **«نصف قرن على مخطوط واحد»**. كتبت في لينينغراد في ٩ـ١٠ آب (اغسطس) ١٩٤٥. انظر «الكلية الشرقية بجامعة القديس يوسف في بيروت» في مجلة وزارة المعارف العامة (الروسية)، شباط (فبراير) ١٩١٠ في «الاحداث المعاصرة»، ص ٧٧ـ٧٨ (باللغة الروسية). (قائمة مؤلفات كراتشكوفسكي تحت رقم ٢٣).

نحو قصة الكتاب

في جلسة مكتب الاستعراب بمعهد الاستشراق التابع لاكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي في ١٣ ايار (مايو) ١٩٤١، قرئ لاول مرة الفصل الاول من هذا الكتاب وكان هذا الفصل يحمل في ذلك الوقت طابعا مستقلا بذاته. وقرئت لاول مرة فصول اخرى في جلسة لجنة طبع الكتب العلمية الشعبية لاكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي في ٢٦ حزيران (يونيو) ١٩٤٣. وأول اشارة عن اعداد الكتاب وعن قراءة قطع منه في الجلسة السابقة، كانت في مجلة «اخبار اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفييتي»، عدد ٧–٨، ١٩٤٣، ص ١٢٦. واول طبعة للكتاب نشرت في ١٩٤٥ والثانية في ١٩٤٦. وبعض الفصول طبعت في سلسلة مكتبة «اوغونيوك» («الشعلة») في ١٩٤٨، العددان ٨و٩.

الترجمات

ترجم نقلا عن المخطوطة الى اللغة العربية فصل «من القاهرة حتى مقبرة فولكوفو في بطرسبورغ»، ونشر في مجلة «المستمع العربي» (المجلد الخامس ١٩٤٤، العدد ١٥، ص ٤ـ٥، والعدد ١٦، ص ٦ـ٧، والعدد ١٧، ٦ـ٧ (٩ و ٢٣ تشرين الثاني (نوفمبر) و ٩ كانون الاول (ديسمبر) مع الصور).

وفي مجلة «International Literature» (العدد ٩، ١٩٤٥، ص‌ص ٤٥، ٤٥ـ٤٦، ٤٦ـ٤٨، ٤٨ ـ٥٠) نشرت باللغة الانكليزية ترجمة موجزة للفصلين التاليين، نقلا عن الطبعة الروسية الاولى: «الكتب والناس» و«أمقالة نحوية ام رسالة الحادية؟» وترجمة اوسع للفصلين التاليين: «رسالة ماجيستر غير مكتوبة» و«رسالة من بلاد الصغد». وترجمت الفصول نفسها الى اللغة الفرنسية في مجلة «La littérature sovietique» ١٩٤٦، ص‌ص ٤٤ـ٤٥، ٤٥ـ٤٦، ٤٦ـ٤٨، ٤٨ـ٥١؛ والى اللغة العربية في مجلة «الوطن»، العدد ٢٤، ١٩٤٦، ص‌ص ١٠ـ١١ و١١ـ١٢، والعدد ٢٥، ص‌ص ١٦ـ١٩، والعدد ٢٦، ص‌ص ١٥ـ١٨ (١٥ و٢٦ كانون الثاني (يناير) و٢ شباط (فبراير)، ترجمة قطان)، وفي مجلة «الكاتب المصري»، المجلد الرابع، العدد ١٣، تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٤٦، ص‌ص ١٥٠ـ١٦١ (ترجمة سعدو). ونشرت ترجمة مجلة «الوطن» بشكل كراس على حدة تحت عنوان «الدراسات العربية في الاتحاد السوفييتي»،

بغداد، مطبعة المعري، ١٩٤٦، ص‌ص ٣٧–٣٩، ٣٩–٤٤، ٤٤–٥٤، ٥٤–٦٨.

وفي مجلة «Revue Africaine» (العدد ٤٠٦–٤٠٩، ١٩٤٥، ص‌ص ١٣٠–١٣٩، ترجمة كانار) نشرت باللغة الفرنسية، نقلا عن الطبعة الروسية الثانية، ترجمة فصل «ارستقراطي القاهرة – «الفلاح»» ونشرت في مجلة «Literatura sovietica» (العدد ١٢، ١٩٤٦، ص‌ص ٥٣–٥٥ و٦٣، ترجمة اتشيفاريا) باللغة الاسبانية ترجمة فصل «مخطوط وحيد وعلماء «اثنتي عشرة لغة»».

وقد صدرت حتى ايامنا هذه الترجمات التالية لكل الكتاب:

I. J. Kratschkovski. Uber arabische Handschriften gebeugt, Erinnerungen an Bücher und Menschen. Aus dem Russischen von Dr. Oscar P. Trautmann, Leipzig, 1949.

Ignacy Kraczkowski. Nad arabskimi rękopisami. Kartki ze wspomnień o księgach i ludziach. Przełoży oraz wstępem i przypisami opatrzy Ananiasz Zajączkowski. Warszawa, 1952.

Among Arabic Manuscripts, Memories of Libraries and Men by I. Y. Kratchkovsky. Translated from the Russian by Tatiana Minorsky, Leiden, 1953.

Avec les manuscrits arabes. (Souvenirs sur les livres et les hommes) par I. Kratchkovsky. Traduit du russe par M. Canard. Alger, 1954. (Publications de l'Institut d'Études Orientales de la Faculté des Lettres d'Alger, XIV).

ونقله الى العربية في دمشق الاستاذ سامي الدهان؛ والى التشكية في براغ، الدكتور هربيك (Hrbek).

التقاريظ

الطبعة الروسية الاولى

ن. ف. بيغوليفسكايا. مجموعة «اخبار اكاديمية العلوم السوفييتية»، العدد ٣، ١٩٤٥، ص‌ص ١١٣–١١٤ (باللغة الروسية).

س. ريسير. مجلة «زفيزدا»، العدد ٤، ١٩٤٥، ص‌ص ١٠٠-١٠١ (باللغة الروسية).

م. ف. تشوراكوف. كتاب ممتع. جريدة «لينينغرادسكايا برافدا»، العدد ٢٠٩ (٩٢٤٤) ١٩٤٥ ص ٣ (باللغة الروسية).

Moscow News, XV Year, N 78, 29 September, 1945, 4.

مجلة «نوفي مير»، العدد ٨، ١٩٤٥، ص ١٣٤-١٣٥ (باللغة الروسية).

سيرغي ماركوف. كتاب الدر المنثور. «ليتيراتورنايا غازيتا»، العدد ٤٩ (٢٢٦٠) ١٩٤٥ ص ٣ (باللغة الروسية).

ب. ن. زاخودر. الكتب والناس. مجموعة «اخبار اكاديمية العلوم السوفييتية» - سلسلة التاريخ والفلسفة، المجلد الثاني، العدد ٥، ١٩٤٥، ص‌ص ٣٩١-٣٩٣ (باللغة الروسية).

International Literature, N 9, 1945, 45.

ف. م. شتين. حديث في اذاعة لينينغراد، بداية حزيران (يونيو) ١٩٤٥ (باللغة الروسية).

ف. سيمينوف. النشرة التوجيهية لمكتبة لينين. الاذاعة. ٦ ايلول (سبتمبر) ١٩٤٥ (باللغة الروسية).

ا. سادوفسكي. حياة العالم. جريدة «فيتشيرني لينينغراد»، العدد ٩١/٧٥، ١٩٤٦، ص ٢ (باللغة الروسية).

البروفسور ن. سميرنوف. مجلة «سوفييتسكايا كنيغا»، العدد ٢، ١٩٤٦، ص‌ص ٨٩-٩٢ (باللغة الروسية).

ميخائيل نعيمة. مجلة «الطريق». السنة ٥، العدد ٣، ١٩٤٦، ص‌ص ٥-٧.

F. Gabrieli. L'autobiografia scientifica di Ignatio Kračkovskij. Oriente Moderno. XXVI, N 1-6, 1946, 37-41.

La littérature sovietique, N 2, 1946, 44.

ا. قطان. مجلة «الوطن»، العدد ٢٤، ١٩٤٦، ص ١٠.

الطبعتان الاولى والثانية

ي. بيلايف. اعمال معهد الاستشراق في موسكو، العدد ٤، ١٩٤٧، ص‌ص ١٠٥ــ١١٥ (باللغة الروسية).

الطبعة الثانية.

M. Canard. Quarante ans sur les manuscrits arabes. Revue Africaine, N 406-409. 1945, 118-119.

ي. سكرجنسكايا. مجلة «اخبار اكاديمية العلوم السوفييتية»، العدد ١٠، ١٩٤٦، ص‌ص ١٢٩ــ١٣٣ (باللغة الروسية).

S. Kara-Murza. Memorias del Academico Ignati Kratchkovski. Literatura sovietica, N 12,1946, 62-63.

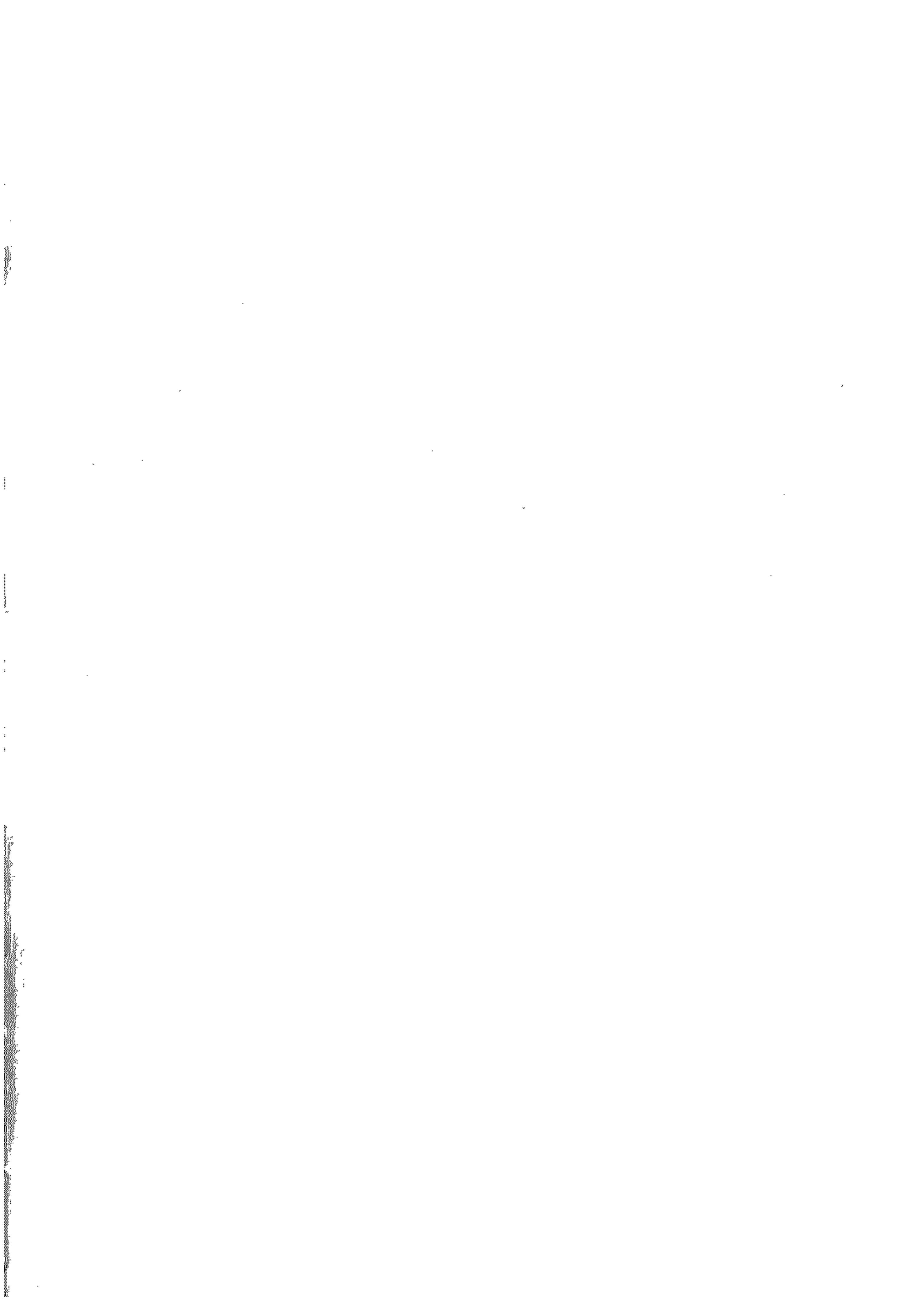
I. Mecerian, Mélanges de l'Université Saint Joseph, XXVI, Beyrouth, 1944-1946, 138-139.

ك. غريغوريان. كتاب عن عمل العالم، جريدة «كومسومولسكايا برافدا»، العدد ٦٧٠٦/٧٤، ١٩٤٧ (باللغة الروسية).

ك. غريغوريان. كتاب عن فرحة العالم الكبرى. مجلة «اخبار اكاديمية العلوم الارمنية» ــ العلوم الاجتماعية، العدد ٥، ١٩٤٧، ص‌ص ٩٥ــ٩٨ (باللغة الروسية).

ب. ي. ــ مجلة حول «العالم»، العدد ٦، ١٩٤٧، ص‌ص ٦٣ــ٦٤ (باللغة الروسية).

س. ماركوف. ربان فاسكو دى غاما. مجلة «حول العالم»، العدد ١٢، ١٩٤٧، على الغلاف. (باللغة الروسية).



محتويات

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته، وشكل عرضه، وطباعته، واعربتم لها عن رغباتكم.

العنوان: زوبوفسكي بولفار، ٢١ موسكو ــ الاتحاد السوفييتي.



24—4028

تصويب

يؤسفنا ان نفيد القراء انه وقع فى هذا الكتاب خطا مطبعى، فيجب قراءة السطر ١٢، الصفحة ٢٩٥ كما يلي: «وبالطبع فقد كان من الممكن ان تكون هناك في زمن بني»، كما وقع اخطاء فى تركيب الاشعار العربية، ص‌ص ٣٣٨ و ٣٤٠.

4028